وســـــــــام جبران

صائد الملح

وســـام م. جبران

صائد الملح

مجموعة قصصية

برلين، الناصرة

2022-1999

γ

وســـام م. جبران

صائد الملح

مجموعة قصصية

2023-1999

الطبعة الأولى 2023

2023 © للمؤلّف

لوحة الغلاف والتصاميم الداخلية: وسام جبران (أكليريك على قماش)

© جميع الحقوق محفوظة

للمؤلف، ولدار جاما للنشر

© All Copyright rights reserved to Gamma publishing and author.

No part of this publication may be reproduced or distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publish.

ISBN: 9789657681893

Gamma Publishing Ketzia Alon Tel: +972(0)54 534909

γ
Gamma

الإهداء

إلى كلّ قارئ

المحتويات

بقع صفراء..... 2

زائرة الليل..... 15

شـــجرة التابوت..... 29

خيطٌ من اللعاب..... 36

زبدٌ فوق رمال عكّا..... 44

صائدُ الملح..... 50

اللّا – شـــيء..... 63

للـ 120..... 72

ربطة عنق حمراء..... 77

برليود رقم 846..... 86

أين أليعازر؟..... 93

بقع صفراء

لم تنتبه زينب يومًا، حين تزجّ بالغسيل إلى داخل الغسّالة العتيقةِ المُنْهَكة، أن ثمّة بقع صفراء في أسفل سراويل زوجها الداخليّة.

الضّوءُ في غُرفةِ الغسيل خافتٌ. مصباحها المحترق لا يجد من يُبدله. نور النهار بالكاد يلج المكانَ.

رائحة الرّطوبة والانغلاقِ في الغرفة الصّغيرة أقوى من الغازات التي تنبعث من بَصمة مؤخرّة زوجِها الصّفراء على سراويله الكادحة.

هذا النهار في مصنع الأقمشة. كُلُّ شيءٍ في المَشْهَدِ يتراوح بين الأبيض والأزرق. فعلى المصنع أن يجهّز مِليونيّ عَلَمٍ كل يوم على مدى الأسبوع المُقبل قُبيل عيد الاستقلال.

يتساءلُ عُمر هامسًا لابن عمّه محمود: "مَلْيُونين علَم باليومْ يا زلَمِهْ. شو بعملوا فيهن هَدولْ؟!"

- جماعة مَهْووسينْ.
- كيف يعني؟
- يعني بعدهن مش مصدقين عنجد إنه صار عندهم دوله؟
- كيف يعني مش مصدقين؟

ففف... الله يعينك على عقلك ياخي!... يعني شُفت بحياتك شعب بتصرّف متلهِنْ؟ اللي مصدّق إنه عِنْدو دولهْ ومطّمِّنْ بنهِبْلِشْ بهاي الطريقهْ؛ عكل سيارة أرْبَعْ خَمس اعْلام، وعكل بيت ستّه سبْعَهْ، وإشي كبير وإشي زغير، واشي مع عَصايْ وإشي بلا عصايْ... بكل خزق ناصبين علم، ناقص بعد يدحشوا الأعْلام بطْيازْهِنْ وهنّي ماشيين يا زلمهْ!

- هههه (يضحك عمر) ... هاي أحسنْ طريقه بحسّوا فيها بالدوله.
- (يضحك محمود) ... بَلْكي مع الوجع حَسّوا فينا شْوَيْ يا زلمه!

❁

لمحمود وزينب ابنٌ تُوُفّيَ في حادث طرقٍ في رومانيا. كان على وشك الانتهاء من دراسته الجامعيّة هناك. من السيّارة المُحطّمة المُحترقة أُخرجَتْ جُثَّتُه. ومعها جثثٌ لثلاثِ فتيات.

أغلقَ الزّمنُ سوادَ هذه الحادثة ولم يبق منها إلا صورة الابن المُعلّقة على الحائط في صالون البيت. صورةٌ لا تشبه صورته الأخيرة التي شاهده بها

الناس هنا بعد عودته مُكفّنًا بالأبيض الناصع الذي غطّى جسده المُهشّم المُحترق بالكامل.

❁

فُتِحَ بابُ غُرْفَةِ ريمْ. الأخت المراهقة التي تحبُّ التجوُّلَ في البيتِ شبه عاريةٍ، خاصّةً في غيابِ والدها الذي لا يعرف غير الصراخ طوال الوقت معتبرًا أنّ هذه التصرّفات التي لا تليق بفتاةٍ تفرَّعَ صدرُها ولم تعد طفلة. أما هي فكانت تقول: "هاي مِشْ حِشْمِهْ هاي خوف". ثم تطرق باب غرفتها خلف الكلام، فينقطع الصوت.

❁

- ماما! ليش ما بدّلْتي فراشي اليوم؟ لازم يْعَفِّنْ يَعْني عشانْ تْبَدْليه؟
- الغساله مش مْلَحْقَه عليكِ غسيلْ، والدنيا برّا شِتا... لا أنا ولا الغسّالة ولا شَمْسْ رَبْنا مْلَحْقين عحَضِرْتِك! ... شو مالو فراشِك يعني؟ من أرْبَعْ تِيّام غيّرتلّك ايّاه. لِحِقْ يِتْوَسَّخْ!؟

❁

لريم عاداتها وطِباعها. رُبّما ورثَتْها عن نُسختها التي تعيش في كونٍ آخر موازي، وهذا أرْجَحُ الاحتمالاتِ منطقية. أما أن تكون قد ورثت هذه الصفات عن أحد والديها فمستحيل.

إنّ ولَعَها بالأبيضِ النّاصِع المُعطّر برائحة مساحيقِ الغسيل لا يُوصف. فلا تقبل أن يكون لون فراشها سوى الأبيض الناصع. تُحبّه جديدًا باردًا، تندسُّ فيه بجسدها شبه العاري، وتُدَفِّئُهُ بحرارةٍ تُولّدُها احتكاكاتُ اللّيل الطويل بالفِراش.

- "لا أفهم الناس الذين يدخلون مَضاجعهم مُكبّلين بالثياب، فدخول فتاةٍ إلى السرير بسروالٍ يشُدُّ بقوّةٍ على الخصر، أو صدريّةً تخنقُ النَّهْدَيْنِ، لا يفرق عن دخول رجلٍ إلى مضجعه مرتديًا ربطة عنق!".

هكذا كانت ريم تُوشوشُ وتضحك تحت لحافها المُحْكَمِ الاغلاق تُخفي تحته ضوء هاتفها.

داهم أبوها الغرفة فجأةً. أزاحَ اللّحافَ. سحب الهاتفَ من يدها. تكوّرت ريم لتغطّي جسدها العاري دون رحمةٍ. ارتبك شاربُ الأب بين صُراخه المتلعثم وبين نظراته المندهشة لحجم حَلَمة ابنته التي أفلتت من التكوّرِ وأطلّت برأسها مثل جارةٍ فُضوليّة مُشاكسة.

- مع مين كنت تحكي بهيك ساعة متأخرة؟
- مع صاحبتي بالمدرسة
- لا تْكَذْبي! لا الساعة ولا منظرك بخلّيني أصدقك! افتحي التلفون! ... شو رقمك السرّيّ؟
- هدا الاتصال الأخير. شوف! "سَماح". هدا اسمها.
- وشو بعرفني إذا كانت سماح هاي "دَكَرْ". اتّصْلي فيها إسّا وافتحي السّماعة، بدي أسمع بداني إنها مش دَكَرْ.
- شو بدي أتصل أقلْها يعني! صدّقني هاي سَماح صاحِبْتي!
- صرلك ساعة بْتِرْغي عالتلفون، واسا مش عارفه شو تحكي!؟ يلا اتصلي أشوفْ!
- رنَّ الهاتف. من البعيد جاء صوتُ سَماح ناعسًا هادئًا. "شو صار ريم؟ ليش انقطع الخط؟"
- ولا اشي حبيبتي. آسفه. فضي الشَّحِنْ. عكل حال مْنِحْكي بعدين. يلا... بدي أكمّل أعبّيه وأنا نايمه.

خرج الأبُ كالصّاعقة من الغرفة. طرق الباب خلفه تاركًا ريم عالقةً في منتصف سقوطها الحرّ.

- "ففففف لو تأخر دقيقتيْن بَسْ!".

تحسّست ريم فُرْجَها. شمّت أصابعها. قفزت من السّرير مذعورةً. نظرت في العتم. أشعلت شاشة هاتفها لتتحقّق مما تحسّ...

بُقعةٌ من السّائل الدافئ تعتري الفراش.

"يا الله! منيحْ اللي ما شافها!"

انكمشت ريم تحت لحافها من جديد. بعد دقائق. عاد فراشها إلى عادته يرتعش بصمت. ودون إطالةٍ، هدأ من جديد فلا تُسمع شهقاته.

❁

- عُمر! يلاّ ابن عمّي. طلبوا مِنّا ننتقل للقسم التاني. بدهن نرتّب الأعلام بالكراتين. خلّصنا طباعة وقصّ.

كان وجهه عابسًا ممتقعًا. كاد ازدحامُ الكَراتين أن يُبعثر المكان، كما كادت أفكار محمود أن تُبعثرَ وجهَهُ. الأعلام المكويّةُ ببياضِها وزُرقتها تتكدّس في كل زاويةٍ ممكنة.

يُمكن للمرء أن يُصابُ بدوار البحر هنا دون أن يفهم السبب.

- مالك ابن عمي؟ شو صاير معك عالصبح؟
- ولا اشي... زعّلت ريم وصرّخت بوجها بدون سبب... متضايقْ ومش طايق جلدي!
- بنتك عم تكبر يا زلمة. من يوم وغاد بدّك تديرْ بالك. الحياة بتخوّف.
- أدير بالي من شو؟
- خيا الزعران كتار وبكل محل.
- وإنت؟ وأنا؟
- إنت وأنا شو؟
- إحنا عارفين ندير بالنا عحالنا يعني؟
- شو قصدك؟

- هاي ولاد عمنا عم بذلّونا من الصبح للمسا عشان شوية قروش ومش عارفين نفتح تُمْنا! بدك ايّاني أنا أدير بالي عبنت بعرفش كيف أفتح تلفونها؟

صمت عمر. زمّ شفتيه. وتابع ترتيب الأعلام بحسب أحجامهم داخل الكراتين بعناية.

"لازم لِخْطوط الزّركا تكون فوك بَعْضَها أفُكي خَبيبي. بِنْفَئِشْ هيك واخِدْ نايم واخد واكِفْ". صرخ أدون يُوسي (السيد يوسي) فوق رأس عُمر.

"آه لو ملكت قليلًا من الشّجاعة لأبوّل على هذه الأعلام كلّها الآن". بصمتٍ تمنّى عُمر، وصلّح محمود أخطاءَه، جاعلًا الخطوط الزرقاء على نسقٍ واحد دون أن يلتفت إلى أحد.

على منشر الغسيل تدلّت كَلاسين الأب كرفٍّ من الحمام. تحررها ريم من ملاقط أمّها بأصابعها المُشْبَعَة بـ"كْريمْ" البشرة. تشمّها، واحدًا تلو الآخر. لا رائحة مسحوق الغسيل القويّة ولا "دَعْكِ" الزّوجةِ المُنهكة ولا حرارة الشّمسِ الحارقة نجحت في محو البُقع الصّفراء وإن بهت لونها قليلا، وضاعت الرائحة.

في السّماء غيومٌ تفرقّت بخفّةٍ... لو حدّقت قليلًا لوجدت فيها بعض من الأصفر.

للشمس بصمتها.

❁

في الليل. تحت اللحافِ الأبيض المُحكم الإغلاق تكوّرت ريم.

- هِيّاني حكيتْلِكْ آخر فانتازيا تْخَيّلتها وساعدْتِك تْخَلْصي. إسّا دورُك سَمّوحتي. أنا كمان إلي حقوق...

... حظيرةٌ أوسع من النّظر تُصَفّ فيها النساءُ على بطونها فوق سِقالاتٍ، مُكبّلة الأرجل مربوطة الأيدي فوق الظهر. كوماتٌ من القشّ الناشف تملأ أفواههن الفاغرة. تتدلّى نهودهنّ كحبّات المانجا الناضجة. مربوطة بأشرطةٍ مُلوّنةٍ كي تتكوّرَ، تحمرَّ، تبُظّ شراييُها. ... ها هي تقطُرُ... تلعقها الألسنةُ، ولا يُفكّ شريطٌ قبل أن تُعتصر، فتَدُرّ حلماتُها اللاهثةُ حليبها دفئًا مُعطّرْ...

❁

تخترق سماعة الهاتف أذن ريم. تتغلغل في ثُقبِها المُلتهب. بأسنانها تعضُّ مخدّتها الناصعةَ. بقوة تُغرِقُها بلُعابٍ متدفّق. أصابعها الأربعة تنقر لحنًا أنيقًا على أوتار فرجها الصغير، تأتيه من أسفل البطن على مهلٍ، بينما تأتي اليد الثانية من الخلف، تدوس الأوتار بيدٍ، وبالأخرى تضربُ بريشتها متلاعبةً بالنغمات.

لم يُداهم الغرفة أحدٌ هذه الليلة. بُقعةُ السائل على فراش ريم اتسعت بكامل حرّيتها واختلطت فيها رائحة كْريمْ البشرة مع إفرازات الجسد الدامعة. عيونُ الجسد تنزُّ بعد فارقتها الأصابع المتعبة.

۞

تنشر زينب فراش ابنتها الناصع العطر.

تشمُّه بأنفها المجرّب فخورةً بغسيلها.

تدعه يرفرف مبتهجًا تحت أعين النهار.

۞

لا رائحة لعيد الاستقلال هذا العام.

لا بُقع صفراء فوق أقمشته البيضاء والزرقاء المرفرفة في كل مكان.

زائرة الليل

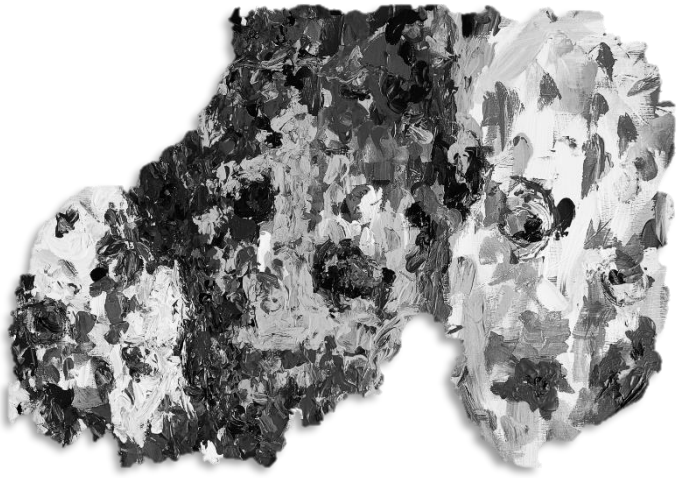

على مائدةٍ في "قهوة أبو نضال" المُطلّة على ساحة المدينة الكئيبة اجتمع الرجال، كعادتهم، لاحتساء شرابهم الممنوع في قراهم المجاورة التي جاؤوا منها. فبدا المقهى وكأنه قنٌّ للديوك.

على مائدةٍ محاذيةٍ لعامودٍ حجريٍّ منتصب وسط المقهى جلس رجلان، أحدهما موسيقيٌّ حليقُ الذّقن والآخر كاتبٌ روائيٌّ ذو لحيةٍ خفيفة يساريّة الهوى. في هذا المساء، كما في كل مساء، دار الكلامُ شبهُ المُكرّر بينهما إلى أن بلغ قاع القارورة الثانية من العرق الرخيص. أحاديث الجنس لا تغيب عن الرّجلين. حاضرةٌ تتلوىّ بين مواضيع حديثٍ كثيرة. بين فانتازيا وأخرى يتبادلانها، بتفاصيل مُفرطة أحيانًا، تُطلّ رغبةٌ لا تُفصح عن هُويّتهما الجنسيّة إلاّ بقدر ما تُخفي.

- لا اسمحلي، مش موافقك...
- طب تخيّل يا زلمة لو في بكل غرفة نوم ميكروفون، وكل ميكروفون مفتوح وصوته مسموع بكل شارع وشارع... تخيّل العمل الموسيقي الهائل اللي رح نسمعه بالشوارع! "أوركسترا غرف النوم"... شو رايك؟

- هي فكرة أورجينال وما نْعَمْلَتْ من قبل، بس برأيي ما رح تسمع شي أبدًا غير السكوت.
- كيف يا زلمه؟
- هيك... ما هدا اللي عم بحاول أشرحلك ايّاه من ساعة... ما رح يبقى حدا بغرف النوم، وكلهم رح ينزلوا عالشوارع...
الفُضول أقوى من السكس يا زلمه، فكر فيها شوي!

*

في المقهى الشعبيّ الذي عُلِّقت على جدرانه، دون تناسق، صورًا للشيخ إمام وجيفارا وجميلة بوحيرد، ولنين... إلى جانب تلك الصورة المُبتذلة المنتشرة في كل مكانٍ لطفلٍ يبكي، لا شيء غير الهَذْرِ في السياسة و"مَصْمَصةِ بْزاز الأراجيل"، وتلصُّص الموائد على بعضها عبر الدّخان العابق وضجيج الأغاني الصاعدة من جهازٍ رديء.

علا صياح إحدى الموائد. الحراكُ في المدينة يتململ. التوتّرُ يحتقن في الشرايين مع سُعرات الكحول المُرتفعة وقلّة الأوكسجين. التفت الرجلان برهةً، تابعا حديثهما المُنمّق الذي انقطع، مُتعالينَ على الصّياح:

- بس الكبت برأيي بيجي من محل تاني، من محل استِحالة قول الحقيقة.

- إفهم عليّ! سبق وشرحتلك إنه المعرفة بتتْمفصل بالمَنْطُوقْ، بس سؤال الحقيقة ما بستجْوب الذات هون بهدا المحل، فاهم علي! وإنما بستجوبها على مُستوى النُّطُق ذاتُه.

- فاهم عليك فاهم. يعني من كلامك بفهم إنه الحقيقه بهدا السّياق مش موجودة بذاتها كدلالة خفيّة، وإنما الذات اللي عم تكذب هي اللي بتلاقي حالها بمواجهة معرفتها اللي هي بموضع مُساءلة عن حقيقتها؟

- بالزبط هيك، وبتلاقي حالها بنفس الوقت بمواجهة طلبها بمُساءلْة الذات عن رغبة الحقيقة. فاهم علي!

يعلو الصّياح مرّةً ثانية. يحتدم النقاش. يتّسع ليشمل مائدتين أو أكثر في الخلف.

- شوف هدول المُنقرضين بشو شاغلين حالهن! حراك الهم وربيع الزّفت... قاعدين يْناضلوا بالقَهاوي وكل واحد داحش بتمُّه مصاصة...

- حبيت "منقرضين"، ها ها ها... قاعدين بِنَفْخوا متل الديناصورات!

يطول المساء. يتفرّع الحديث يتلوّى. من "اشتغال الحلم في اللغة" إلى "الطبيعة الديمقراطيّة العميقة لاكتشافات فرويْد" مرورًا بالحديث عن أنواع فروج النساء والعلاقة الشكليّة المحتملة بين أشكالها وشكل الإبهام، وصولًا إلى تاريخ التطرّف في الديانة المسيحيّة وتحليل شخصيّة كولومبوس، أو مناقشة أسئلة مثل "ما الذي يمثل المُتعة بوصفها اليقين الوحيد في مواجهة الموت؟"...

الصّراخ يملأ المكان. الدُّخان. قرقرات الأراجيل. طرطقات الملاعق. وقع الأيادي المنقبضة المُصرّة على رأيها فوق الموائد المستطيلة. نفس الأيادي التي تستمني بعزم قبل النوم دون أن تغتسل.

في لُجّة هذه الأوركسترا، لم تتوقف أحاديث الرّجليْن كما لم تتوقف نظراتهم عن متابعة باب المقهى كلما فُتح ودخل زبائن جدد.

- "فش ولا "شَـقفِه" بدها تفوت عالقهوة يا زلمْا!".
- "إشرب خَيّا اشربْ... الله برزقْ".

❁

انقطع تيار الكهرباء عن المقهى. الموسيقى خرسَتْ. وحدها الجمرات تتوهّجُ مع الأنفاس فوق الحَشَـفاتِ المخروطيّة للأراجيل المنتصبة

حول الموائد. توقفت الأحاديث الهائجة التي كانت تحتمي بصخب الموسيقى والهياج الصوتي الجماعي، قبل أن تعود على هيئة تمتماتٍ خافتة تتصاعد تدريجيًّا، لكن بحذر، إلى أن عاد لينقطع فجأة من جديد:

ها هي تدفعُ باب المقهى برجلها. تخترقُ الدّخانَ كثورٍ يقتحم مذبحَ الآلهة مكسُوًّا بالأبْخرةِ والطّيب. هواء المكان تكثّفَ فجأةً على هيئة امرأةٍ مُضيئةٍ غير ملتفتة إلى ظلال العيون المتلصّصة، وغير آبهةٍ باحتشاد الدُّيوك في المكان الصّاخب والرّوائح النتنة التي تفوح من ثنايا ريشها.

رداؤها الخمري يُعانق جسدها، يخنقه بقدر ما يُفسح له. على خدّها شامةٌ خاطفة. على صدرها شبه المكشوف وشمٌ كتابيٌّ تصعب قراءته في ضباب الأراجيل والسجائر، وشمٌ يُثيرُ الفضول والشّهوة معًا.

حافية القدمين.

لا. بل كانت ترتدي زحّافةً بلونِ البشرة يستتر خيطُها البلاستيكيّ النّحيف بين إبهام قدمها والإصبع المُجاور الأطول بقليل من بقيّة الأصابع على نحوٍ شبقٍ مُداهم.

التصقت عُيونُ الدّيوك بأصابع قدميها العشرة المطليّة بالمناكير السوداء. تحرّكت غُلْمَةُ العيون مع خطواتها المُتّقدة الواثقة المُتّجهة صوب مائدة الرجليْن.

توقّف الكلامُ بين الرجليْن. كما كلّ شيءٍ في قُنّ الديوك.

- "ليش سكتّوا؟ شوك كنتو تحكوا؟"

نظر الاثنان إلى بعضهما في مُحاولةٍ عبثيّةٍ لإخفاء ارتباكهما. عاد الهَذرُ والضجيج إلى المكان. العيون كلّها تحجُّ ببصرها إلى المائدة التي جمعت الرجليْن بزائرة الليل، كأن كعبةً قد هبطت وحطّت في المكان.

- كنا نحكي علم نفس... قتل الأب... طوطم... سفاح محارم...
- ثورات العرب... الربيع الـ
- اه، نعم، صح، كَمانْ... يعني كل هاي المواضيع...

قرّبت رأسها الباسم إليهما. جلست. وشوشت إليهما كمن يبوح بسرٍّ عظيم:

- "... لما كنت زغيره، كان في بحارتنا ملحمه. كنت أروح عليها وأقعد ساعات أتفرّج كيف بقَطْعُو لحم الخُرْفان... كيف الدّم بِشُرّ وبتتعلق الأعضاء بالسّياخ، حتى البيض كانوا يتركوه مدلّى فوق الرّوس عباب المَلْحَمِه... متل جراس لكنيسة... وقتها كنت أسأل حالي: طيب الخُرْفان وينها؟ ليش ما بتصيّح؟!
- الناس لما بتقدّم التّعازي ما بتفتّش عالقبرْ...

تُرجع ظهرها تُسْنِدُهُ إلى خلفٍ.

- بس جُوّا كل واحد في قبر مفتوح بحاول يخبّي فيه خوفُه.

❁

من تحت ستار المائدة. سِرًّا. رفعت ساقها اليُمنى. حكّت بأصابع قدمها الحافية ما بين فخذي الرجل الحليق بحذرٍ فيما تتوجّه بحديثها إلى الآخر المُلتحي.

- إنتِ متلًا. شو مْخَبّي؟ كتاباتك الأدبيّة متابعتها كلها... بعدك عايش بزمن المقاومة ولغة المقاومه. ما زهقت من حالك! ليش ما بتكتب قصص زي اللي بتحكيها عالتشات مع الصبايا! والله أحلى وأصدق... ليش مخبّي حالك هيك؟
- أنا؟ تشات؟ ... لا... شو... أنا مخبّي؟ كيف يعني؟
- حِلْمَك... حلمك...
- ...
- شو نْسيت حِلْمَك! بلاش نرجع كتير لورا. تبَع مْبارح، نْسيتُه؟
- حلمي أنا؟ أنو حلم؟ شو نسيته؟
- مبارح بالليل... أنا اللي كانت تحكي معك... فهمت إسا؟ ... شو؟ نسيت ولا أذكرك!

❁

ارتبك صاحب اللحية اليسارية. نظر إلى رفيقه نظرةَ استنجادٍ...

كان الموسيقيّ غارقًا في عَرَقِه لا ينْبسُ بكلمة. احتقنت دماؤه بين فخذيْه. المقهى يتلصّص عبثًا. ستارُ المائدة المُسْدَلِ وحده كفيلٌ بأسرار المائدة. الجمراتُ تهتاج فوق صَخرِ اللُّغة السّاكتة. تتسارعُ مَصْمصات الأراجيل ومجّات السجائر.

يدور المقهى.

يدور حول ذاته.

ببرودٍ تحُكُّ قضيبَ الملتحي بأصابع قدمها الأخرى. توجّه حديثها للحليق:

- وإنتِ وينْتا رَحْ تِعْتْرِفْ؟
- ... أعترف بشو؟
- إنّكْ مِشْتهي صاحبَك (تُشير برأسها إلى الحليق)
- مين؟ أنا؟ كيف؟
- مبارح... مع مين كنت تحكي؟ لمين بعتت موسيقاك عشان يسمعها؟ لمين قلت إنك بتحب شعور المساواة بالفراش؟ عفكرة، سُخِت وأنا أسمع الموسيقى، رَبُّنا الله إنها حلوة؛ حلوة وجوعانه!
- جوعانه!
- لا...؟! لكان خليتها توكلني عالفاضي؟

تُقهقه. تصمت فجأةً. تقرّبُ رأسها إلى المائدة من جديدٍ لتلتهم الإثنيْن بنظرةٍ واحدة. تُنزلُ قدميْها إلى الأرض مُخلّفةً وراءها بُركانيْن على وشك الانفجار.

توجّهت بالكلام إلى كليهما:

- شو؟
- شو؟
- شو؟
- ولا مرّه فكّرتوا بالموضوع؟
- ...
- ...

❁

يقف المقهى على مخالب قطٍّ متوجّسٍ. تداعت المشروباتُ تبدّلت الجمراتُ مرارًا ولم يعد أحدٌ من الزّبائن إلى مِضجع زوجته هذا المساء.

بالعَشْرَةِ السُّودِ تُداعبُ قضيبيْهما معًا تحت سِتار كعبةٍ صنعتها العيون الجائعة في قُن الديوك الذي يعجُّ بصُوَرِ المُناضلين الأحرار. بالعَشْرَةِ السُّودِ تتحسّسُ هيئتهما. تتفحّصُ أيُّهما أكثر انتصابًا وألمًا داخل

سجن الثياب المحزمة. تتنقّلُ بعيْنَيْها بينهما مثل نمرةٍ تترصّد فرائسَها تتحيّرُ لم تحسم أمرَها بعد. انعاظٌ في العيون. دماءٌ تتهافت. عَصْدٌ وعَزْدٌ تحت السّتار المُكعّب. تحشر أصابعها عند العِجانِ بين الخصية والدُّبْرِ. تُحرّك أصابعها. تُهيّجُ الحِمَمَ المُحتقنة. الوجوه تتصنّمُ. نطاف الرّجليْن تسيل قليلًا على غير إرادةٍ منهما.

- "مين فيكو رح يقطَعْ للزعيم تبَعو؟
- زعيم؟
- أي زعيم؟ شو هدا تبعه!؟
- أي زعيم... شو الفرق! ما انتو لعبتولو فيه لحد ما سدّلكو حلقكو... كيف الشّعور لما بتختنق؟ وإنتِ، كيف الشّعور لما بزاقتَك بتسيل ومش قادر تبلعها؟... مين فيكو فكر يعض شي مرة عليه؟ ما هو جوا تمامكو فايت بحلقكو! مين فيكو فكّر يعضَّ بقوة، يغرز سْنانه بقاع الزعيم، يْمَزّع جلدُه بِسْحَبُه شْوَيْ شوي يْشَلْخُه بِسْلَخُه سَلِخْ؟ ... الدم مالح. جلدِةِ الزعيم بتْصير متل الخُرقة البالية بتِنْزَتْ للكلاب. الدم سُخن. المهم تبطلوا تمصمصوا... مين فيكو فكّر مرّه بزعيم مسلوخ؟

❁

تخشّبت اللغة وتلاشت.

أسندت ظهرها إلى الخلف كمن يتخذ وضعية المنتصر.

نظر الرجلان حولهما.

كان المقهى فارغًا.

لا ثالث لهما.

۞

كأن شيئًا لم يحدث.

عادت التمتمات إلى الآذان. تدرّجت نحو الصّخب. أم كلثوم تُعيد وتكرر "أهل الهوى..."

تسمّرت عينا الموسيقيّ في وجه لينين...

- لشو حنطوه؟!
- هدول فراعنه يا زلمة...
- مش عأساس ماركسيين... وعمال...!
- لا يازلمه... شو ماركسيين وعمال... شو خص ماركس بالتحنيط!

۞

وحده أبو نضال ظلّ يُنظّفُ حمّام المقهى وقذاراته حتى الصبّاح. يمسح الغبار عن صورة الشيخ إمام بيدٍ مهترئة. في رئتيه أورامٌ بعدد الليالي.

شـــــجرة التابوت

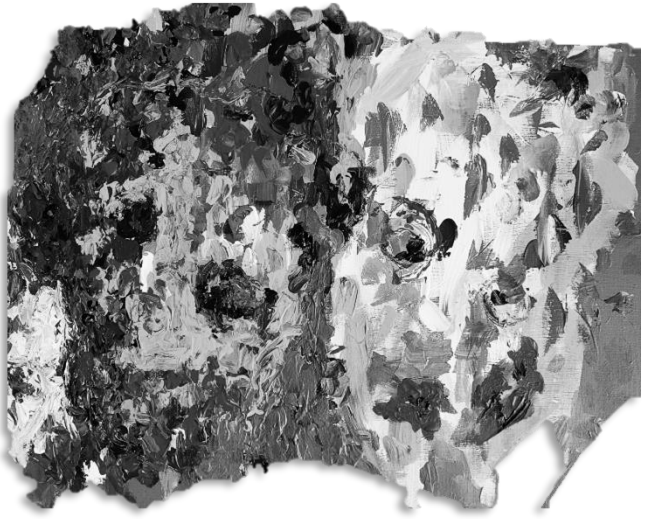

الأفكارُ الغريبة لا تأتي الكُتّابَ والرُّواة وحدهم، فها هو مرزوق متكوّرٌ فوق المرحاض ينتظر لحظة الفَرَج في معدته المتحجّرة، يفكر إن كان تابوته بات جاهزًا وراكنًا في مكان ما، ينتظر من يشغله، أم إنه لا يزال خشبًا في انتظار الإعداد، أم تُراه لا يزال شجرةً تنمو في غابةٍ ما لم تُقطع بعد!

لم تكن مرآة الحمام في مواجهته. كان عليه أن يلتفت يسارًا بقوة كي يرى وجهه المتجهم بوضوح لم يشهده من قبل. افتعل بعض الملامح الغريبة، كما نفعل جميعنا في مثل هذه اللحظات، وبدأ يكلّم نفسَه بصوتٍ مرتفع: إن أردت أن تحكم عالمًا فوضويًّا كهذا العالم، عليك أن تتمتع بأعظم صفةٍ يتمتع بها الله؛ الغياب.

تفاجأ مرزوق من صوته المرتفع. أشاح وجهه عن المرآة. نظر إلى سرواله الجاثم على الأرض بين ساقيه العاريتين... ساد الصّمت... توقفت جميع الأفكار في رأسه... أحسّ كمن يسقط سقوطًا حرًّا في فراغٍ سحيق.

دقّ جرس الباب، انتفض مرزوق عن المرحاض، تذكر موعده الأول مع مَلَك، تلك الحسناء التي صادفها ليلة الخميس المنصرم في بارٍ ليليّ، ورغم أن ما شدّه إليها في البداية كان نهداها شبه العاريين، إلا إنه أغرم بضحكتها وكلامها بعد أن وافقت على عزومته التي بدأت بطلقة زجاج

(تشيسر) من التّقيلا جُولْدْ، وانتهت بوجبة عشاء. ولولا دورتها الشهرية لما تأجل اللقاء الأول إلى هذا اليوم؛ أي بعد انقضاء أسبوع تقريبًا.

اضطرت ملك إلى الانتظار قليلًا، إلى أن أفاق مرزوق من مرحاضه راكضًا نحو الباب.

أهلا... مَلَك... لا تؤاخذيني، جعلتك تنتظرين...

وقبل أن يكمل تأتأته، كانت مَلَك قد قفزت إلى داخل المطبخ المفتوح على الصالون وهي تقهقه بصوتٍ عالٍ، وتضع زجاجة نبيذ أحمر على المائدة.

ما هذه المائدة يا رجل! بنظرةٍ واحدة يمكنني أن أحزر ماذا أكلت خلال أسبوع على الأقل، ألا تنظف خلفك! هيا هيا، أين الصابون؟ الليفة... أين ليفة الجلي؟ لننظف هذه الفوضى سريعًا... اسمع... سائق الأجرة هذا... ها ها ها... قبل أن أخبرك... لقد أحضرت قطعة جبنٍ شهية وعنقود عنب... إنه ريكفورد فاخر... شديد العفونة... هل تحبه؟ والعنب... آه كم هو حلو... تذوقت واحدةً قبل أن أشتريه... افتح جزداني وأحضرهما... هيا! ... آه، دكان سروالك مفتوح! ههه... هيا، أنا أنظف وأنت أزل الصابون بالماء... ألا تريد أن تسألني ماذا حدث لي مع سائق التاكسي؟ ... لا داعي أن تسأل، لقد تحرّش بي... طبعًا، يحدث لي هذا دائمًا، لكن هذه المرة كان السائق دون جوانًا وسيمًا لبقًا في الكلام... لم أشهد أسلوبًا حذِقًا

كأسلوبه من قبل... لولا أني كنت على موعد معك، لأكملت الطريق معه... كنت على وشك فعل ذلك بالمناسبة... ها ها ها

مرزوق يشطف الأواني بالماء وهو يفكر بإلحاحٍ إن كان قد ترك المرحاض نظيفًا خلفه أم أنه نسي...

ألا تغار عليّ؟ ... ما بالك، ألا تسمعني! ...

أغلق مرزوق دكانه بصعوبة. نفض يديه المبللتين. جففهما بثيابه البيتية الرثّة. سار نحو باب المدخل. نظر إلى جزدان مَلَك وقد أطل عنق زجاجة النبيذ من شقّه...

تبًّا للتّقيلا...

فتح باب البيت وخرج.

وضعت ملك زجاجة النبيذ وقطعة الجبن على المائدة الصغيرة. جلست تنتظر. لم تجد مبررًا لخروج مرزوق المفاجئ سوى أنه خروجٌ لن يطول ولا يحتاج إلى تبرير. أو إنه خروج يحمل مفاجأة سارّة ما يعوّض عن هذه الغرابة بغرابةٍ تتفوق عليها وتمحوها. لكن خروجه قد طال. والأفكار والهواجس بدأت تتفرع مثل شجرة سنديانٍ تتمدد في الفراغ. تارةً تتفقد الثلاجة الفارغة. تارة تُشعل سيجارة. تارةً تتأمل الصور المبتذلة المعلقة

بغير عناية على الجدران المُهمَلة. فتحت ملك دفّة خزانة المطبخ الجانبية الصغيرة. عثرت على كأسي نبيذٍ غير متشابهين. وضعتهما بعناية إلى جانب الزجاجة. أشعلت سيجارة جديدة. تركت نصفها يحترق وحده في المنفضة النُّحاسية المزخرفة، والتي بدت كتحفةٍ ثمينة وسط هذا الخراب. ثمة رائحة كريهة بدأت تتفشى في البيت الصغير. اقتربت من الحمام. شعرت بقوة الرائحة. اقتربت من المرحاض. بتقزز شديد ضغطت على زر السيفون لتتخلص بسرعة من بقايا مرزوق.

❁

خلعت ملك حذاءها وتمددت على الكنبة. شعرت بالنعاس يسيطر عليها، نظرت إلى ساعة الحائط... استغرقت في النظر حتى فهمت أنها متوقفة منذ زمن عند الساعة الثالثة وبضع دقائق... آه غير معقول... لقد حل الظلام منذ وقت... زجاجة النبيذ توقفت في المنتصف، وكأس النبيذ شبه الفارغ لم يفارق يدها الناعسة...

الأفكار التي تراودنا فيما نوشك أن نغفو تبدو لنا أكثر قربًا من الله منها إلى أنفسنا؛ في هذه اللحظات التي بالكاد نمسك ونتحكم بها تفلت كلاب الحراسة من عقولنا وتغور...

قبرٌ من الزجاج تظلله زيتونةٌ وارفة... خلف الزجاج موتٌ يُطلقُ أظافرَه مثل امرأةٍ تستعد لليلةٍ فاجرة... ها هي تتعرّى ببطءٍ بلا استحياءٍ...

تتفسّخ مثل زجاجة عطرٍ سُكبت فوق التراب... تتآكل مثل شهوةٍ تتزاحم عليها ديدانُ ذكورٍ جائعة... لا باب للقبر. وحده الضّوء يدخل ويخرج دون استئذانٍ...

امرأة عارية تقف هناك تراقب ظلَّ الشجرة الوارفة، وحُبيباتُ الزيتون تعتريها... تقدمت لتقطف زيتونةً... لم تجد يديها. مدّت لسانها عاليًا... قُطع الجذعُ. سقط نحو السماء... جثت على ركبتيها... تفتت الزجاج. رفرف الجسدُ المتفسّخُ... صرخ...

أفاقت ملك مذعورةً. عجزت عن فتح عينيها أمام أشعة الشمس التي تضرب زجاجَ النافذة. تحركت بصعوبة نحو الستائر. أغلقتها. جلست إلى الكنبة تفرك عينيها. نظرت إلى الساعة... كانت تشير إلى ما بعد الواحدة والنصف بقليل.

خيطٌ من اللعاب

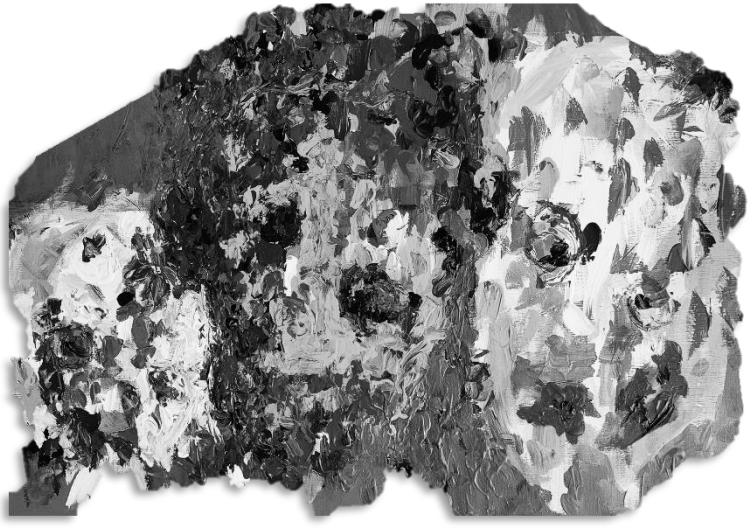

في حديقته جلس وحيدًا يُراقبُ حلزونة تُسرعُ إلى مكانٍ ما، تاركةً خلفَها خطًّا من البُصاق المخاطيّ، يتلامع.

أنزلَ رجلَه اليُمنى من على اليُسرى بعد أن أحسَّ بخَدَرٍ. كان عليه أن يفكّ التصاقًا بين خصيتيه وفخذيه بحذر. أرخى السّاقَيْن. باعدهما دون مبالاةٍ. ومن بينهما تدلّت كتلةً كبيرةً منتفخةً رديئة التصميم. في بريق عينيْهِ المُتخافت ينعكس خطُّ اللُّعاب الذي ترسمه الحلزونة على مهلها، كما تنعكس رغباتُه التي أهملها منذ أكثر من سبعين عاما.

أغلقَ علبة سجائره مُحتفظًا بالسّيجارة الأخيرة.

ليت للذاكرة علبة كعلبة السجائر تُفتَحُ وتُغْلقُ، لا لشيء سوى أن تُحْرَق.

يتساءل: كيف يُحدِّدُ الحلزونُ وُجهتَهُ؟ إلى أين يذهب؟

في عينيْ أبي نزيه، الذي لا ولد له، يتجمّدُ الوقتُ.

لم تكن نجوى تحب الزرَّ الفوقيّ للقميصِ حين يُغلقُ أعناق الرّجال. ولم تكن تُحبّ الشَّعر كثيفًا على الصّدر، بل تفضّل ألاّ يكون موجودًا أبدًا. يُعجبُها أن يُفكّ الزرُّ ويُفصح القميصُ المكويُّ عن نفسه دون أن يقول كلّ شيء. كانت تُحبُّ التّدرُّجَ البطيء. تُحبُّ أن ترى الأشياءَ بخيالها قبل أن تراها بعينيْها. كانت تكره الشعر أينما وُجد في بقاع الجسد.

الجُرْحُ الفاغرُ الذي تفجّرت منه الدّماءُ لم يَغِبْ عن باله يومًا. ظلّ المشهدُ يُطارد ذاكرتَهُ. والرّائحةُ.

لا يتساءل أحدٌ عن ذاكرة الصّورة، خاصّةً حين تكون عميقةً متفجّرةً صادمةً كذاك الجرح. أما الرائحة فأمرُها عجيبٌ. كيفَ يُمكن للدماغ أن يحفظ الرّائحة بعد سبعين عامًا أو أكثرَ؟

كاد الجُرحُ أن يفصل الرأسَ عن الرّقبة، حتى أن التّفكيرَ في فصله فعلًا كان أسهل من التفكير في تخييطه. لكنّه ظلّ مبْتورًا مُعَلَّقًا. شعرُ عُرفه وقذاله غائصٌ بالدم.

تحت الحرير الذي تُفضّلهُ أبيضًا مكويًّا ساخنًا نتوءٌ يُبشّر بثُنْدُوَةٍ جائعة. هكذا جلست تفكّر نجوى على شُرفة بيتها المُطلّة على الشارع المُزدحم: لِيَكُنْ أبيضًا، لكن ليس شفّافًا إلى حدٍّ يُنافسُ فعلَ التَّخيُّل. ففي فعل التّخيّل تعدُّديّة؛ تعدُّديّةُ الشّكلِ. تعدُّديّةُ اللّون. تعدُّديّةُ الملْمَس. تعدّديّة الشّهوة. وهذا كلّه لا يكفي. فالسؤال عن الشيء هو ما يمنح الشّيءَ حياتَه. وحين تتعدّدُ الأسئلةُ والأجوبةُ تتعدّدُ الحَيَواتُ. تتجدَّدُ. أوليس هذا أكثر إثارةً من إثارة الكشف السّريع؟

لكن، في التّخيّل انتقائيّة كذلك، أو لنقل تحكّمٌ. نعم، تحكّمٌ في الرّوائح، في الإفرازاتِ، في الوضعيّات وفي الدّيناميكيّات بين المُشاركين،

الفاعلين والمتفرّجين. تحكّمٌ في اللون، في الصّوت، في الإيقاع، في الألم، في الإيغال، في طريقة الإتيان، في مواقع الانفجارات المتتالية، في الانبجاسات المتدفّقة، في وتيرة تلاشي الرّجفة الأخيرة اللاهثة.

هكذا... جلست تُراقبُ جسمها وتُداعبُ فرجها غير مبالية بالنوافذ المُشْرَعَة. متلذّذة بلسعةٍ خفيفةٍ من حرارة الضوء المتسللة إلى الغرفة.

أجملُ ما في الله غيابُه.

قطعت الحلزونة شوطًا كبيرًا هذا النّهار. فالمسافةُ بحجم حجريْن من أحجار سور الحديقة. أي من حيثُ تبدأ الياسمينةُ بالتّفرّعِ حتى بداية كومة أزهار الزينْيا النّجميّة. قطعت شوطًا تاركةً خلفها مسارًا رطبًا يتلألأ في بعض جنباته مغازلًا الضّوء ببُصاقِهِ النّزق. تارةً تُمرّرُ لسانَها فوق صدره كريشة كاتبٍ من العصور القديمة يعتني بخطِّه، يتأنّق، دون أن يُسرع إلى النهايات؛ ريشةٌ تكتبُ بضعَ حُروفٍ. تجفُّ. تعود لتنغمس في حلقِ قارورة حبرها من جديدٍ. حتى الاختناق. تنغمس. يسيلُ لُعابُها عند شفاهِ القارورة الفاغرة. تُعاودُ الكتابةَ حرفًا حرفا. وأحيانًا تشطبُ وتمحو.

للأوراقِ قشعريرةٌ تقولُ ما لم يُفصح عنه الحبر.

نصف قرنٍ من الزمن مرّ منذ أن فضّلَ الجُنديُّ الانتقامَ على طريقته. كانت هذه هي المرّة الأولى التي يرى فيها جُنديًّا مذعورًا يذبح فرسًا ويصرخُ بالعبريّة التي لم يُتقنها أبو نزيه يومًا. كان مُعتادًا على جنود الإنجليز وبنادقهم الصّماء، أما هؤلاء الجنود الجُدد المتراكضين كالهُواة، لم يحزَّوا رقبة ناجي (أبو نزيه). تركوه على الأرضِ مُكبّلًا يُراقب فيما يحزُّ أحدُهُم رقبة فَرَسِه الحبيبة.

شربت الأرضُ الدّماء وارتوت.

ظلَّ الرأسُ عالقًا يتلوّى. بصمت.

بعد سبعينَ عامٍ أو أكثر. يجلسُ ناجي وحيدًا في حديقة بيته. على أرضِهِ المُرْتَوية. يُراقبُ حلزونةَ الوقت تتسلّلُ من شِتاءٍ إلى شتاءٍ لا شتاءَ فيه.

تُراه، وقد جَمُدَ الزَّمنُ في عَيْنيْهِ، ماذا سيقولْ؟

هي أرضٌ لا تتغيّرُ رائِحتُها. أرضٌ لا تمحُوها الفصولْ.

أرضٌ وطأتها سنابك الخيول وجنازير الدباباتِ. حُرِثَت كما تُحرَثُ النّساءُ حين تدقّ ساعة الغزاة.

كم من ربيعٍ أشعل خُضرتَه مُنْيُ الرّجالِ العابرين على هذه الأرض!

في التّباطؤ شوقٌ وفي الفُجاءةِ لذّةٌ لا طعمَ لها؛ لها كلّ الأطعمة.

هكذا كانت تفكّرُ نجوى الجالسةُ على شرفة بيتها الصّغير في الطابق الثاني المُطلّ على مقهى "سُوس عِتْسْ" في شارع شينْكِنْ. صيف تل أبيب الشّهيّ والرطب يُشبه نجوى، وهو لا يُحبُّ الأزرارَ المُقفلة.

من هنا، من شُرفة الطابق الثاني، يصعبُ التّحقّقُ إذا ما كان الصّدرُ حليبًا، أو ما هو قُطر الحلمةِ ولونها؛ أهي زهريّةٌ كحلمةِ نادر، أزعر المدرسة؟ أم تُراها بُنيّةٌ بلونِ القهوة التي توقفت عن شُربِها بعد رحيل نزيه، أو بلون الرّغيفِ السّاخن كما تحبُّه هي؟ أتراها ناعمةٌ أم مُحاطةٌ بالنُّتوءاتِ؟ أهي من النّوع الذي يتأثّرُ سريعًا بدفء اللُّعابِ وحركة اللسان، أم من النّوع الذي يقشعرُّ وينتصب بعد عضٍّ ونهش ومداعبات؟

لم تكن تُحبّ ما تفعلُهُ "إفْراتْ" حين تُغافلُهُ في المقهى بلباسها العسكريّ. تتحايلُ على بُندقيّتها المشبوكة بصدرها لكي تُعانقه وتُمصمصَ

شفتيْه فيما تُعشعشُ رائحةَ عرقِها الشّبِقَة في قميصه الأبيض المكويّ و"تُجَعْلِكُهُ".

تُفضّلُ نجوى ممارسة فعل التّخيّل من على النافذة، فلا تُفقد القميصَ عُذريّته.

شاهدت نجوى الكثير وخَبِرَتْ ما يكفي من الرّجال والحياة لتملأ ذاكرةً لا تتسع لها ذاكرةُ أمّها التي لم تعرفها تمامًا. ركبها كلّ من هبّ ودبّ. وركبتهم هي أيضًا كما تشتهي. لكنّها لم تركب يومًا فرسًا أصيلةً حقيقيّة مذبوحةَ الرّأس غارقةً بالدّماء.

نجوى في السابعة والعشرين من عمرها. أو أقل.

رجفتْ يدُها الرّطبةُ فجأةً حين رنّ هاتفها.

- ألو، بابا! ... ألو! ... ألو! ... ...

زبدٌ فوق رمال عكّا

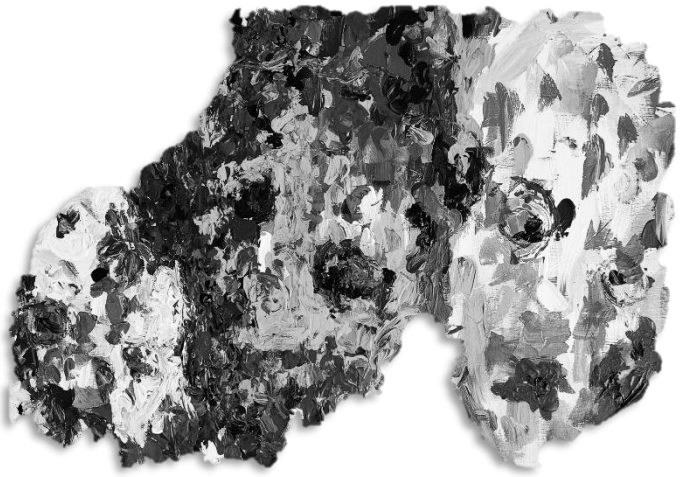

لا يُنظَرُ الى الناس هنا إلاّ بأعْيُن العسس. لم يكن سورُ عكّا قد اكتمل بناؤه بعد. ولا فنارتُه التي تطلُّ على البحر الى الغرب. حجارةٌ يغسلها عَرَقُ البنّائين الحارّ نهارًا لتبترد ليلاً بموج البحر.

تنام العائلة فتخرجُ ليلى تحت جنح الظلام، تحتمي بين رُكام الحجارة الكبيرة المصقولة المصفوفة شرق البحر وبين موجه الآتي من الغرب. لا يخطر على بال المرء أن للعسس عيونٌ هنا بين الموجة والموجة وفي متاهات الفراغ بين الحجارة.

كان حُبُّهما ممنوعًا. فعازم جنديٌّ في حرس أحمد البوشناقيّ الجزّار لا يُسمحُ له بالزواج، وليلى ابنة عائلةِ تاجرٍ غنيّ. كانا يلتقيان سرًّا هناك، تحت ظلال القمر حيث تُلاقي عكّا موجَها.

- أنظر يا عازم الى رمال الشاطئ تتلذّذُ بالموج يترامى عليها.
- سأحبّك يا ليلى طوال العمر، ونجلسُ هنا وحدنا نراقب رمالنا.
- لكن رمال عكّا لا تكتفي بموجةٍ واحدة تترامى فوقها.

*

عند انبلاج الفجر يتعالى ضجيج البنّائين وتتحرّك الحجارةُ المكعّبة الكبيرة تحت سواعدهم لتصطفّ داخل السّور العظيم المتعالي يومًا بعد يوم. لا يخطر على بال أحدٍ أنّ بقعةً رطبةً لم تجفَّ بعد فوق ذاك الحجر هي مَنيُّ عازم. فهي ليست وحيدة فوق الحجارة.

"عُيونُ العسس لا تنام"، همسَ شريك عازم في الثّكنة في أذن صديقه.

في هذا الصباح، الثالث والعشرون من تشرين الأول عام 1784، لم يكن ضجيجُ البنّائين عاديًّا، توارت فيه طرقاتُ الأزاميل لدقائقَ، ولم تُسمع غير الصّيحات.

لم يكن في المكان المُعدّ لتشييد فنار عكا غير الرجال وامرأة واحدة سيقَتْ لتُحاكم على خيانةِ زوجها مع عاشقٍ من القرية المُجاورة، يُقالُ إنه صانع خزفٍ ماهرٍ وفنان مُبدع، تملأ تُحفُه بيوت عكا الغنيّة والميسورة. أما هي فلم يُذكر لها اسمٌ ولا صفة، وكلّ ما قيل إن زوجها كان قصّابًا أصابه المرض منذ زمن وامتلأ جلده بالبُثور، وإنه تزوج قبلها من أربعة نساءٍ ولم يُنجب.

في هذا الصباح، دُفن الإثنانُ أحياءً تحت حجارة الفنار التحتيّة، وغطّى طين البنّائين جسديْهما حتى الاختناق.

لم يخفت الضّجيج في المكان، لكنّه تبدّل كما تتبدّل ألوان الموسيقى في سمفونيّةٍ هائجة، فبعد الصُّراخ والاستجْداء وزمجرة الجنود وشتائم الزوج الغاضب، يأتي دور الأزاميلِ وأوامر الجنود في سَعْيِها الى تسيير العمل بانتظام من جديد.

عادت الحياة الى طبيعتها الرّتيبة حتى مغيب الشمس.

يسير عازم بين التخوم خارجًا من ثكنته نحو الغرب. ستكون ليلى هناك في انتظاره الليليّ. لو رآه أحدٌ في هذا العتم لما خفي عنه ارتيابه، بل تكاد أفكارُه المُضجّة في رأسه تُسمع خلف النوافذ المعتمة النائمة. "عيون العسس لا تنام"، تتردّد هذه العبارة في ذهنه دون توقّف. يبتسم فجأة في سرّه: "لكنني أعرفهم جميعًا، هل سيشون بي وبليلى إن رآني أحدٌ منهم؟" يعود ليبتسم ويهزّ رأسه. "لا مُستحيل... وفي كل الأحوال، سأعرف كيف أحمي نفسي وأحميها من الوشايات... سأذهب الى ليلى وأقطف ثمرتها بعد تعب هذا النهار". هكذا كان عازم يفكر فيما هو ذاهبٌ الى ليلى.

كانت في انتظاره. تجلس فوق الحجارة التي صُفّت هذا النهار وأغلقت كل حواشيها بالطين الرّخوِ. وصل عازم. كان مثل بركانٍ على وشك الانفجار من الشوق إليها، وكانت حِممُها قد بدأت بالتطاير حين رأته. تعانقا. تبادلا قُبلاً شهوانيّةً على طريقة الغزاة، مُستخدمين كل ما في أفواههم من أسلحة. رفعوا أثوابَ بعضهما بانفعال لا يصبر. عصر نهديْها بيديه الخشنتين. وبيديها المرتبكتين أخذت تحلّ حبل سرواله بحثًا عن قضيبه. قبضت عليه من الأسفل. من خصيتيه. رفعته الى مستوى فمها الجائع. كانت تعشق التلذّذ بسخونته داخل فمها، وتستمتع بتضخمه التدريجيّ متباهيةً في سرّها بقُدرتها على إيقافه. نظرت إليه وقد انتصب الى أقصاه. قالت ضاحكة: "لا حاجة أن يستيقظ البنّاؤون غدًا، فها هو الفنارُ جاهزٌ يُضيء".

كان القمر هلالاً. يُراقبُ الأرض متلصّصًا. عيُون العَسَسِ لا تنام.

يجب أن أعود الى الثكنة الآن، قبل أن يشعروا بغيابي. مسح رأس قضيبه بصدرها، وكان فمها لا يزال ممتلئًا. هزت رأسها موافقةً. بلعت ريقها وما معه. قالت: "اذهب أنت أولاً، ثم أتبعك بعد قليل". هكذا كانت العادة، كي لا يُشاهدا معًا.

عاد عازم الى ثكنته. نام عميقًا وطويلاً.

عند الشاطئ الغربيّ. الموج يترامى تباعًا بعنفٍ فوق الرمال.

ركعت ليلى على رُكبتيها فوق الحجارة الباردة الخشنة، وأخذت تمصُّ أزباب العسس تباعًا.

زبدُ الموج يغمر الرمال.

صائدُ الملح

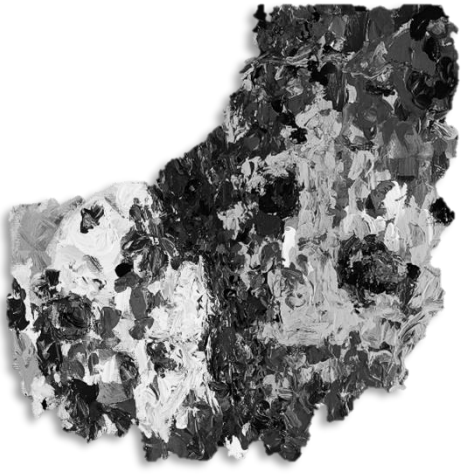

لم يكن أيهم آبهًا بما يسمعه كل يوم من تعليقات المستجمين والمستجمات الوافدين من كل أنحاء العالم إلى البحر الميت طلبًا للعلاج أو أشعة الشمس. كان يُمسك بصنارة صيدٍ من القصب، يلقي بها في البحر المالح منذ انبلاج الفجر حتى اهتجام الليل.

جلست صوفيا مع رفيقاتها السائحات، تراقبن أيهمَ عن بعدٍ وتتهامسنَ. لا بدّ أنه مجنون. قالت واحدةٌ. ضحكن. طبعًا مجنون. قالت أخرى.

ظلت صوفيا تنظر وتراقب. لم يكن أيهم يتحرك. كان جامدًا في جلسته على الشاطئ الرمليّ المالح، لا يفعل شيئًا غير الانتظار. وهل يتصرّف المجانين هكذا؟ قالت صوفيا فجأةً. ماذا تقصدين بهكذا؟ سألت رفيقتها. أقصد... انظري إلى هذا الهدوء... إلى هذا الصبر... هل يتصرف المجانين هكذا حقًّا؟ ... ربما ليس مجنونًا، لكن عناده هو المجنون... ضحكن.

نهضت صوفيا من مكانها. نفضت الرمال عن فخذيها العاريتين. غسلت وجهها مزيحة عنه القناع الوحليّ وقد جفّ وتشقّق.

- سأذهب لأتكلم معه.
- وما شأنك بهذا المجنون العنيد؟
- مجرد فضول...

- إنها ليست أقل جنونًا من المجانين...

اقتربت صوفيا من أيهم. جلست قربه. اهتزّ صدرها العاري. لكنه لم ينظر إليها.

- ماذا تصطاد هنا!
- اصطاد ما يُخرجه البحر.
- وهل يَخرج شيئًا من هذا البحر؟
- ربما.
- وهل اصطدت شيئًا؟
- ليس بعد.
- أي نوع من الأسماك تنتظر؟
- نوع واحدٌ فقط، لا وجود لغيره هنا؟
- وما اسمه
- مدى.
- مدى؟ ... لم أسمع يومًا عن نوع كهذا من الأسماك!
- إنه نوعٌ نادرٌ... بل، إنه ليس نوعًا...
- ماذا إذًا؟

- إنها سمكة واحدة وحسب... لا، ليست سمكة... ربما تكون سمكة... لا أعرف...
- هل تريد أن تقول بأن هناك "سمكة" واحدة ووحيدة في هذا العالم، اسمها مدى، وتعيش في هذا البحر المالح، وحتى أنك لا تعرف أكانت سمكة أو لا؟
- نعم.
- وكيف عرفت بوجودها هنا؟ كيف تعرف أن خيطًا مُعلّقًا بقصبة يكفي لاصطيادها؟
- خيط الصنارة يبدأ من القلب، لا من القصبة.
- تقصد أنك لم تشاهد هذه الـ"مدى" مشاهدة العين من قبل؟
- لا لم أشاهدها من قبل.
- وكيف تقرر أين تلقي بصنارتك؟
- أراقب كل خلجةِ ماءٍ في البحر. أتفقّده بعينيّ قطرةً قطرة... ثم أجرّب... أجرب وحسب...
- فهمت... وهل هذا هو اسمها فعلًا؟ هل أنت من أطلق عليها هذا الاسم؟!
- لا أعرف... ربما الانتظار هو من أطلق عليها هذا الاسم.
- ومنذ متى وأنت تنتظرها؟
- منذ وعيت على هذه الدنيا.

- وكم من الوقت ستنتظر بعد؟
- هذا الأمر يتعلق بمدى...
- ولماذا يتعلق بها؟ ألم تضع لها طُعمًا في سنّارك؟
- لا يُمكن اصطياد مدى بواسطة طُعمٍ، أيًّا كان هذا الطُّعم.
- ولكن، قد تنتظرها ما تبقى لك من العمر... وماذا لو لم تمسك بها؟
- لم يعد هذا مهمًا.
- كيف؟ بعد كل هذا الانتظار، وما قد يلحقه من انتظار، ألا يهمك أن تُمسِك بها؟
- لم أعد أعرف... المهم هو الانتظار...
- لم أفهم!
- إن توقفت عن الانتظار، لن يكون هناك شيء اسمه مدى...

صوتٌ يُنادي صوفيا من بعيد.

- ها هم الشبابُ قد جاؤوا لينضموا إلينا. يجب أن أذهب... ما اسمك؟ ... عذرًا، أنا اسمي صوفيا...
- وأنا أيهم.
- سُعدت بالحديث معك يا أيهم... اسمح لي بالذهاب الآن...

هزّ أيهم برأسه صامتًا دون أن ينظر إلى صوفيا التي نهضت وكلّ ما في جسدها يهتزّ.

❁

- أين كنتم يا شباب؟
- كنا في الحمام الساخن... كم هو رائع... عليكن أن تجربوه...
- وهل هناك شيءٌ هنا أسخن من هذا الطقس الحارق؟
- لقد اكتسب جسدك لونًا جميلًا بسرعة يا صوفيا... لكن يجب أن يكتسب كله هذا اللون...
- ليس قبل أن تفعل هذا أنت أولًا يا ألكسندر
- هنا لا يُسمح بخلع الثياب كلها... ربما نفعل ذلك في شاطئٍ آخر... دعونا نفعل ذلك غدًا.
- اه... حدّثينا يا صوفيا؟ ماذا دار بينك وبين هذا المعتوه؟
- صحيح يا صوفيا، من هذا الأهبل الذي يصطاد هنا؟ ماذا كنت تفعلين بصحبته؟
- كانت تصطاد السّمك معه (ضحكات)
- الليلة عشاءنا سمك يا رفاق (مزيد من الضحك)
- لا أظنه معتوهًا (قالت صوفيا بنبرةٍ هادئة)

- ليس معتوهًا وحسب، بل وأعمى أيضًا... لقد شاهدناكما، إنه لم ينظر إليك ولو للحظةٍ طوال حديثكما! هل يُعقل ألا ينظر شابٌّ إلى هذا الجمال المتعرّي أمامه!
- لا هو ليس أعمى.
- ربما يكون توحّديًّا (قالت إحداهن) ... ألا تدلّ تصرفاته على ذلك؟
- لا لا... (قالت صوفيا)، لا يمكن ذلك... لقد تحدث معي بكل منطقٍ... ربما ليس بمنطقٍ تمامًا... لا كما نتحدث نحن ربما... لا أعرف... لكنه ليس منطق التوحّديين على كل حال...
- ليس توحّديًّا وليس معتوهًا وليس أعمى... وماذا يكون شخصٌ يصطادُ بلا كلل في بحرٍ ميّتٍ!؟
- لا أعرف. (قالت صوفيا شاردةً، ارتدت صدريّتها، ثم نهضت من مكانها وذهبت)

❁

لحق ألكسندر بصوفيا إلى غرفتهما في الفندق المحاذي للشاطئ. خلعت صوفيا الخيوط التي ترتديها ودخلت لتستحم دون أن تغلق الباب خلفها.

ألكسندر: هل أنت متعبة يا صوفيا؟

- ماذا قلت؟ لم أسمعك!

رفع ألكسندر صوته ليخاطب صوفيا متحديًّا صوت المياه المنهمرة بقوةٍ فوق جسدها الشهيّ. لكن صوفيا لم تفهم، ولم توقف تدفّق المياه.

خلع ألكسندر ثيابه، واندس مثل نمرٍ جائعٍ إلى حوض الحمام ليلتهم صوفيا كاملةً.

❁

في صباح اليوم التالي. استيقظت صوفيا باكرًا، ارتدت فستان الشاطئ الحريري فوق ثوب السباحة، واضعةً على رأسها منديلًا مورّدًا، وخرجت لتتمشى على الشاطئ وحدها.

- صباح الخير صيّادنا الرائع. ألم تنم ولو قليلًا؟

تابع أيهم تنظيف الأملاح التي تكدست في كوز صنوبرٍ رُبط في طرف خيط الصنارة.

- هل تصطاد بكوز الصنوبر هذا؟ ألا تضع السّنّار؟ كيف ستعلق الأسماك فيها إذًا؟

- (ابتسم أيهم) ... تحاولين اصطيادي بالكلمات؟ هذا هو اسلوبك إذًا. لا، لم يمر الوقت لتنسي أن مدى لا يمكن اصطيادَها بسِنّارٍ جارحٍ أو بطُعمٍ مخادع...
- قلت لي إنك لم تشاهدها يومًا... لكن، هل من صورةٍ لها في مُخيّلتك على الأقل؟
- هي وحدها من يحدّد صورتَها في مخيّلتي.
- لكن كيف؟
- جرّبت كثيرًا أن أتخيّل شكلها... هذا ما أفعله طوال الوقت... وفي كلّ مرةٍ كنت أعجز عن استكمال صورتها... ليس لها صورة محدّدة في رأسي، لها الكثير من الصور، ولا شيء يجمع بين هذه الصور غير نُقصانها... كلّها ناقصة...
- وما الذي ينقصها؟
- لا شيء
- لم أفهم!
- لا شيء ينقصها... هكذا فقط... هل تعرفين ماذا يحدث للأشياء إن اكتملت؟
- ماذا؟
- تموت.
- لكنني لا أفهمك يا أيهم... اسمك أيهم أليس كذلك؟

- نعم
- ما الذي يجعلك تصبر على صيدٍ لا يتحقّق كل هذا الوقت؟
- الحب
- الحبّ؟ كيف؟ أي حب؟ حبّ ماذا؟
- لا أعرف... ربما هو الحب، وربما شيءٌ آخر لا أعرفه بعد...
- وكيف يجعلك الحبّ تصبر على رغبةٍ لن تتحقق؟
- الحبّ، هو الشيء الوحيد الذي يمكننا أن نملأ به كلّ نقصٍ.
- إن فهمتك بشكلٍ صحيح فالحبّ، إذن، هو كل شيء، لأن النقصَ موجودٌ في كلّ شيء، أليس كذلك؟
- أو إنه اللا-شيء...

❁

انتهى أيهم من تنظيف كوز الصنوبر من الأملاح. وقف. وبحركةٍ التفافيّةٍ سريعةٍ رمى بصنارته إلى جوف المياه بعيدًا. ظلّ كوز الصنوبر طافيًا، تاركًا حوله دوائر تتسع وتتلاشى.

- سنذهب اليوم، مع رفاقي، لأكل السمك في مطعمٍ فاخرٍ مجاور. هل تسمح لي أن أدعوك لتأتي معنا؟
- شكرًا. أنا لا آكل الأسماك.

❁

عادت صوفيا إلى غرفتها. فقد تأخرت عن موعد قهوتها الصباحي.

كان جسد ألكسندر المُنهك متمدّدًا على السرير الأبيض عاريًا فاغرًا، بينما تُعدّ صوفيا قهوتها بصمت.

جلست صوفيا إلى الشرفة تراقب البحر وتشرب قهوتها. كانت ترى الصياد من بعيدٍ متكوّرًا في ثيابه الدافئة ممسكًا بقصبته دون حراك، وإلى جانبها جسد ألكسندر الذي بدأ يتململ ويتقلب.

نظرت صوفيا إلى قصبة ألكسندر المرخيّة فوق حوضه الخالي من الشّعر. للمرّة الأولى لم تشعر بشيء.

كانت رائحة القهوة هي شهوتها الوحيدة هذا الصباح.

❁

في صباح اليوم التالي. استيقظت صوفيا. ارتدت ملابسها. أعدت كأسين من القهوة.

جلست إلى جانب أيهم.

لم تنظر إليه. لم ينظر إليها.

شيءٌ ما تحرّك في عمق البحر.

موجةٌ ناعمة تدحرجت نحو الشاطئ وتلاشت فوق أملاح الرمال بصمت.

اللّا – شـــــــــيء

أفاقت أم سليم على طرطقات اللصوص في الطابق السُّفليّ. فزّت من نومها اختبأت خلف ستارةٍ.

موج الشتاء مُرعبٌ في بحر قيصريّة. يتدافع بقوّةٍ دون أن يصل إلى أي مكان. مطرٌ فوق بحرٍ. كلّ شيءٍ يتحرك في زمن يتجمد.

"موشيه! نُوعَم. اصعدا إلى أعلى وتفقدا البيت. هيا بسرعة!"

وقف موشِه بملابسه المبللة وحذائه العسكريّ الموحل عند مدخل الطابق العُلويّ المُعتم. يكاد يشعر بالمطر ينهمر على رأسه داخل الغرفة.

"نوعم كوهين! هل أنت خائف؟ هيا... سأحمي ظهرك... أدخل وانظر ماذا هناك تحت اللُّحف!"

نبش نوعم كومة اللُّحف. شاهد طفلًا رضيعًا متكورًا نائمًا. على رقبته الخلفية وحْمةٌ حمراء...

سمع أهل قيصريّة بالمجازر المرعبة التي حصلت في القُرى المجاورة. كانت أم سليم لا تزال في بيتها، تلك الليلة، مع ابنها الذي كان لا يزال في شهره الرابع. أما سليم ابن الخامسة فقد تسلل مع أبيه إلى خربة آل بوشناق في الساحل المجاور لإحضار مركبٍ خشبي.

"اسحب المجاديف سليم! يلا بسرعة فش وقت!"

كان أبو سليم يحارب الوقت لتهريب عائلته إلى بيت أقربائه في عكا قبل وصول جنود اليهود إلى قيصريّة وارتكاب مجزرة جديدة.

- ماذا هناك يا نوعَمْ؟ هل وجدت شيئًا؟
- لا شيء... لا شيء هنا... هيا بنا نخرج...

خرجت أم سليم من خلف الستارة بعد أن تأكدت من ذهاب اللصوص. تفقدت رضيعها النائم. انهمرت دموعها الساخنة فوق خدّه النائم بصمت.

تحت المطر وفوق الموج جدّفَ أبو سليم إلى أن بلغ بعائلته شاطئ عكا.

وحده الزمن لم يكبر في البيت الحجريّ على شاطئ قيصريّة.

❁

- ما هذه القضيّة؟ لماذا لم تُحل في المحاكم المحليّة؟

- لقد تعقد الموضوع كثيرًا يا سيد سليم... جهاتٌ عليا تدخلت، ويريدون الاستئناف كي تبتّ محكمتنا فيها.

- ماذا تقصد بأن جهات عليا تدخلت!

- هذه ورقة من أجلك. اقرأها ثم احرقها...

نظر القاضي سليم بعناية إلى الملف متجاهلًا الورقة... نوعم كوهن... نوعم كوهن... كأني أعرف هذا الاسم...

- متى موعد المحكمة؟
- بعد شهر من الآن.

نهض القاضي سليم. "احرق هذه الورقة بنفسك". لم يقرأها. خرج من مكتبه حانقًا.

❁

- كيفك يمّا؟ شو طابخه اليوم؟

ذهب القاضي سليم ليزور أمه ويأكل من طعامها كعادته حين يهرب من ضغط الشّغل وملفات المحاكم.

- الله يرضى عليك يما. هدا شهر الخبّيزة والعلت... لقِّط حامضة من برّا وتعال كل مع أبوك.
- متذكري يما الجندي الإسرائيلي اللي حكيتيلي عنه مرة؟ شو كان اسمه؟ نوعم؟
- قصدك الحرامي نوعم؟ بس الصدق يما، لما شاف أخوك نايم تركه... ما بعرف ليش!... ويمكن عرف إنّي متخبية ورا الستارة،

وبرضو تركني... شو بعرفني شو كان في براسه، ما مد إيده عأخوك ولا عليّ... بس راح البيت. أخدوه منا الله يوخدهن...

- أنا فحصت...
- شو فحصت يابا؟ كل زتون، هدول كبيس خالتك. مد إيدك...
- اليهودي اللي ساكن ببيتنا اسمه برضو نوعم... نوعم كوهن.
- يلعن أبوهن كلهم يابا... الله لا يباركلهم لا ببيت ولا بولد.
- كيف أخوي، عم بطل عليكو؟
- الله يحميه يمّا... بشتغل ليل ونهار... وراه كوم لحم، ما إنت عارف...

❁

على منصة المحكمة جلس القاضي سليم بزيّه الرسميّ.

إلى جانب نوعم تكومت شخصياتٌ هامة ومحامون كُثر من الطراز الثقيل، لا تتوقف وشوشاتهم وتشاوراتهم. في الجانب الآخر امرأة عجوزٌ تجمّدت دموعها، ورجلٌ أربعينيّ يُمسك بيدها ويُربّت على رأسها، ومحام شاب يتصفح أوراقه بصمت دون أن يرفع رأسه عنها.

- يا سيادة القاضي. لقد حذره موكلي أكثر من مرة ألا يرعى أغنامه في أرضه ولم يستمع إلى الكلام.
- ولهذا السبب أطلقت عليه الرصاص وقتلته؟

تناوب المحامون في تقديم ملفاتٍ وأوراقٍ. ترافع بعضهم بحماسة. وطالت الجلسة.

جلست الأم التي فقدت ابنها تبكي وسط الضجيج بصمتٍ. هي لا تعرف العبرية... ابنها الأربعيني يحتضنها وينظر إلى القاضي بعينين غائرتين، كأن به ينظر إلى لا شيء؛ إلى أعماق القاضي لا إلى صورته الخارجية...

في زاويةٍ خلفيّةٍ من الصالة جلس الشخص بصمت... الشخص الذي أشار إليه القاضي سليم فجأةً قبل أن يقف ويُخلي له مكانه.

مشى الشخصُ ببطءٍ متوجّهًا إلى منصة القاضي. التفت الجميع إلى الخلف متتبعين خطواته الواثقة نحو منصة الحكم. ظهرت وحمته الحمراء على رقبته الخلفية بجلاء. جلس، بلباسه المتواضع مكان القاضي. نظر إلى سليم الذي وضع عليه سُترة القاضي وتنحّى جانبًا. تحسّس صاحب الوحمة الحمراء مطرقةَ القضاء مُبتسمًا.

صمتٌ في الصالة. دويُّ رعدٍ يهزّها للحظةٍ.

- من يكون هذا؟ ومن أعطاه الإذن ليجلس هنا على كرسي القضاء؟ (صاح نوعم بصوتٍ مرتفع)
- قبل أن تسأل من هذا، عرّفه على نفسكَ! (وجه القاضي سليم كلامه إلى نوعم)
- أنا نوعم كوهن. مدير شركة قيصريّة للعقارات.

- عنوانك!
- قيصريّة. البيت الحجري الساحلي رقم 48 ج.
- بأي صفةٍ تجلس فوقنا وتطرح الأسئلة على موكلي؟ (صاح أحد المحامين الكبار)
- بأي صفةٍ تسكن في هذا البيت؟ (أعاد الشخصُ السؤال إلى نوعم بهدوء)
- ما معنى هذا؟ ماذا تقصد بأي صفة؟ هذا بيتي، وليس هذا موضوع شكٍّ في القضيّة!
- كيف حصلت على هذا البيت؟
- ممن هم أعلى مني رتبةً... وما شأن هذا بالقضيّة!؟
- ألا تعرّف عن نفسك أولًا، قبل أن تطرح الأسئلة؟ (صاح محام آخر)
- سأعرف عن نفسي. لكن، قل لي أولًا، ما اسم الشخص الذي منحك البيت والذي تقول إنه أعلى منك رتبةً؟
- إنه الجنرال... لا أستطيع ذكر اسمه، لكنه جنرال وكفى.
- وهل هناك من هو أعلى من هذا الجنرال؟
- بالطبع... القائد الأعلى للجيش...! ما علاقة هذا بالقضيّة؟
- ومن يكون فوق القائد الأعلى للجيش؟

- (أحد المحامين بغضب) تجلس على كرسيّ القاضي وتتساءل مَنْ فوق مَنْ فوق مَنْ...؟ وأنت... من أنت!؟
- لم تجبني يا نوعم! من يكون فوق القائد الأعلى في الجيش؟
- وزير الدفاع...
- ومن يكون فوق وزير الدفاع؟
- رئيس الوزراء... (أجاب نوعم يائسًا)
- ومن فوق رئيس الوزراء؟
- (يصرخ كمن يريد أن يُنهي هذا العبث) لا شيء فوقه لا شي، لا شيء...

وقف صاحب الوحمة الحمراء وقال بصوتٍ هادئ:

أنا هو اللا - شيء...

"ما في شي أصعب من الموت"

لم يسمع نون هذه العبارة إلا مرة واحدة من أمه في طفولته، لكنها ظلّت تطلّ من نوافذ ذاكرته وتقلقه إلى أن تجاوز الثمانين من عمره. لا يعرف لماذا ظلّ دائمًا يقاوم هذه الفكرة في داخله... هل فعلًا ليس هنالك من شيء أصعب من الموت؟

بالأمس توفيت والدته عن عمر يناهز الثامنة والتسعين. نعم، لا تنشغلوا في الحساب، فالسيد نون هو ابنها البكر الذي وضعته في العام الأول من زواجها. في ذلك الوقت، لم يكن زواجًا مبكرًا. كان زواجًا وحسب.

نظر نون إلى والده الجالس على أريكته المعتادة، يرتدي عباءة المنزل المصنوعة من القطن الخشن، نصفه في الدنيا ونصفه الآخر غائبٌ، يستقبل المعزّين دون أن يرفع صوته أو نظره إليهم.

كاد الملل أن يُطيح بنون وهو يراقب المشهد. يستمع بنصف أذنٍ إلى أحاديث المعزين التي تصارع الوقت والرتابة برتابةٍ أكبر. "ما الذي يفكر به أبي الآن؟"، تساءل نون في خاطره. كان يكبرها بعشرة أعوام، أي أن عمره الآن يقترب من الـ 110... ربما كان ينتظر موته قبل أن يودعها... لكن، الآن... وبعد أن ودعها... ماذا بقي له؟ هل فعلًا لا شيء أصعب من الموت؟ ... ها هو يحرك أصابعه ببطء. أعرف هذه الحركة جيدًا، وإن تباطأت الآن شيئًا

ما وارتبكت. إنها الحركة المألوفة لديه حين يسأله أحد من أحفاده عن عمره... هل تراه يعدّ السنين الآن، هكذا دون سؤال؟ ... وأي سنين؟ أسنينه التي مضت، أم سنين زواجهما... أم تراه يعدّ ما تبقّى له من عمر؟ ... لكن، كيف يمكن للمرء أن يُحصي سنينه التي تبقت! ... في عمره، قد لا تكون هذه المهمة صعبة...

- "ما في شي أصعب من الموت"...
- "الله يطعمنا ونعيش قدها"...
- العوض بسلامتكم...
- تعيش
- ...
- ...

كم يمكن للمرء أن يعيش في الحدّ الأقصى... هل من رقم؟ ... جارتنا أم سلام بلغت الـ 112... لم يعرف أبي أحدًا تجاوز هذا العمر من قبل! فهل بقي له من العمر ثلاث سنوات وحسب... في الحد الأقصى! ... لا، ربما أكثر، أولا يقولون دائمًا في أعياد الميلاد "لـلـ120"؟ نعم، 120. ربما هذا هو الرقم الأخير في عمر الإنسان... أي تبقى له 11 عامًا... في الحد الأقصى... هل هذا ما يفعله أبي الآن؟ هل يجلس ويحسب سنينه الـ 11 المتبقية؟

واحد... إثنان... ثلاثة... لكن، ماذا لو عاش هذه السنين وبلغ الـ120؟ ماذا سيفعل في سنته الأخيرة؟ هل سيترك عدّ السنين ويبدأ بعد الشهور؟ ... رجفت يد أبي النون واهتزّ رأسه، لكنه عاد إلى هدوئه بعد أن قدم له أحد الحاضرين كأس ماء.

- "الله يطعمنا ونعيش قدها"...

هزّ أبي رأسه. ابتسم...

- "الله يرحمها"
- تعيش
- الله يرحمها
- تعيش
- ...
- ...

لكن، ماذا لو عاش سنته الأخيرة كلّها، ودخل في شهرها الأخير!

توقف نون عن التفكير فجأة... فغر عينيه... هل يمكن للإنسان أن يبلغ من العمر قدرًا يجعله يبدأ في عد أسابيعه الأخيرة!... أو ربما أيامه! ساعاته! ومع الدقيقة الأخيرة من عامه الـ120 سيبدأ الاحتفال بقدوم عامٍ جديد... تُرفع الأنخاب... و... آه... ماذا سأقول لأبي؟ ... للمية وعشرين يابا...!

ربطة عنق حمراء

لا شيء يجبره على التفكير بالزمن أكثر من تلك اللحظة التي يهتز بها فوق أريكة القش في الحديقة يُراقبُ حلزونةً بعينها. من أين أتت قبل أن تعربش على الجدار الحجري قرب شجيرة الباسيفلورا المتدفقة؟ إلى أين ستتجه الآن؟ لماذا لا تتحرك قدُمًا، تكتفي بهز مجساتها اللزجة؟ هل ستتجه يمينًا نحو البوابة الخشبية نصف المفتوحة، أم ستزحف نحو قن الدجاجة الوحيدة المتبقية في الحديقة، والتي توقفت عن وضع البيض منذ زمن؟

مع الحلزونة يتوقف الزمن.

❁

جلست منى إلى جانب زوجها وهي تلف كتفيها بشالٍ من الصوف الدافئ.

- بماذا تفكر؟
- بالزمن؟ ... هذه الحلزونة... هناك... انظري! ... إنها تجعلني أفكر بالزمن
- الحلزونة؟ ... أم إنه الخريف؟
- هل لون الخريف أحمر؟

... ...

- الساعة هي الثامنة والنصف. أنا جاهزة. هل ارتديت ثيابك؟ لا أريد أن نتأخر كثيرًا بالعودة، لذلك علينا ألا نتأخر بالوصول.
- لم يبق سوى أن أربط عنقي بهذه المشنقة الأنيقة... كم أكره هذه الفكرة. تبًّا لمن اخترعها... لا بدّ أنه كان مريضًا نفسيًّا وجد له أتباعًا كثُر.
- عليك أن تكون من أتباعه هذه الليلة. لا مفرّ.
- أتباعه! .... ليتني عرفته... بل إنني عالقٌ هنا، لا أفعل سوى أن أطيع أتباعه البُلهاء...
- دعك من الفلسفة الآن... لا... ما هذا... قلت لك مرارًا أحبّها بعقدتين لا عقدة واحدة... هيا، دعني أربطها لك سريعًا... لماذا اخترت السوداء! إنه احتفال. سأحضر الحمراء، هذه لا تليق بالمناسبة.

❁

لا يعرف رفيق ما الذي تفكر به الحلزونة حين تتوقف عن الحركة. طالما وجد أنه من الأسهل أن نحزر ما الذي تفكر فيه عند تحركها: تفكر في السير، الحركة، الطعام... ربما الطعام، أو إنها تحس بالجوع وحسب، ثم تنطلق... تنطلق؟ ... تزحف... نعم تزحف نحو الطعام... لكن، كيف تعرف إلى أين؟ ربما تتحرك وحسب، لا بحثًا

عن الطعام، بل بحثًا عن الأمل... الأمل بوجود طعام... لكن، مهما يكن، فإن حركتها تجعلك قادرًا على التفكير باحتمالاتٍ كثيرة، احتمالات قد تصيب، وقد تخيب، لكنها تشكل مادة غنية للتفكير. التفكير وحسب. إنها تتحرك، إذن هي تُحَرِّك؛ تحرك التفكير... لكن، هل يكشف هذا "التفكير" عن حقيقة ما يدور في خَلَدِ الحلزونة فعلًا؟ ... آه، مهلًا... ماذا قلت! خَلَد! ... لا، لا... لا بد أن هذا يكشف عما يدور في خَلَدي أنا وحسب... فهل للحلزونة "خَلد"؟! ... لكن، من الأصعب أن تحزر بما تفكر فيه الحلزونة حين تتوقف عن الحركة. تقل الاحتمالات، تتسع المسافات بين الفكرة والفكرة فنفقد معها الروابط... آه... الفكرة الواحدة إذًا، هي مجموعةٌ من الروابط... روابط! ... بين ماذا وماذا؟ ما الجُسيم الأصغر الذي تتشكل منه فكرةٌ ما؟ ... جُسيم! ... هل تكون الفكرة مادة؟ هل يُمكن حفظها، تفكيكها، إعادة بنائها، تعديلها، إعدامها! ... كيف نفكر؟ ماذا يدور في خلد الحلزونة! ...

- ها أنت جاهز الآن... صرت واحدًا من أهم أتباع مخترع المشنقة الأنيقة... ألم يكن هذا اسمها!
- منذ تزوجتك، صرت تابعًا لأشياء كثيرة...
- لا تنس زجاجة النبيذ... احملها أنت.

- الأبيض؟
- لا... هذه رخيصة... الأحمر.

ليس الضجيج هو ما يزعج رفيق، بل عدم قدرته على الإفلات.

حين ينكسر النهار تاركًا رأسه يميل على كتف الليل، يصير الغسق إلى الأحمر.

- يا لك من شاعر...
- لا... أعرف... وحدها الموجات الطويلة الحمراء تصلنا بعد أن يتشتت قوس الضوء في الأفق.
- أبطئ قليلًا! الطريق مليئة بالمطبات...
- أنت المستعجلة، لا أنا...
- ... جميلٌ منظر الغسق
- نعم جميل... وساحر... بفضل شيءٍ واحدٍ فقط
- ما هو؟ لكن لا تجبني بقصيدة لو سمحت!
- لأننا أقل جاذبية من جاذبية الشمس...

- لم أفهم... هل كان هذا شعرًا، أم فيزياء!

❁

يتقن رفيق ستّ لغاتٍ.

في هذا النوع من الحفلات التي يلتقي فيها أشخاص من جنسياتٍ متنوعة؛ أعضاء السلك الدبلوماسي وعوائلهم وأصدقائهم، عليه أن يسمع، بل يستمع، وأحيانًا عليه أن يُصغي، بل ويُصغي جيّدًا، لا بأذنيه وحسب، بل بكل ما لديه من حواس.

الكلماتُ هنا تُقال لا كي تُفصح، بل تُقال كي لا تُفصح.

كيف لرفيق أن ينجو من نعمة عدم الفهم، وهو المحكوم بفهم كل اللغات التي يعج بها هذا المكان، بل ويعرف منها أكثر مما يحتاجه المرء ليتواصل مع هذه الضوضاء! كيف ينجو رفيق من هذا العذاب الذي يطارده في كل زاوية، ومع كل رشفة نبيذ وكلّ نخبٍ، ومع نظرات الغرباء المتفحصة، والوشوشات البعيدة، والمجاملات، ومحاولات التقرب والاستكشاف، والأسئلة التي تبدأ وتنتهي في المنتصف دون جدوى، فالمُقاطعين كُثر، والفضوليين والمتطفلين والمتملقين والحاسدين... يمكنك أن تصمّ أذنيك... أما عقلك...

بحث رفيق عن منى بعينيه. لم يجدها وسط الزحام.

اه رفيق، تعال يا صديقي، يجب أن تتعرف إلى جون، د. جون، إنه باحثٌ في طب الأعصاب، يُجري تجاربه على طيور الفرّ، إنه... اه، هو سيشرح لك عن أبحاثه... جون! هذا رفيق زوج منى... تعرفها طبعًا... إنه أستاذ الفلسفة في الجامعة التي عملت فيها قبل أن أصبح سفيرًا... ااه، سأترككما تتعارفان... عذرًا، زوجتي تناديني...

- أهلا جون... ممم... د. جون
- اووه... لا داعي، لا داعي... سيد...
- رفيق
- اوه يس... رافيك... يكفي أن تناديني جون
- أهلًا... تشرفت...
- وأنا أيضًا...
- ممم...
- أوه...

*

ذات يوم قرأت كتابًا، لم أعد أذكر اسمه، لكن، جاء فيه ما كشف لي، دُفعةً واحدةً، ما الذي يُزعجني في الزحام. ... لا أذكر تمامًا، لكنها كانت عبارة من قبيل أن "الزحام يحفّز الذاكرة... الزحام يستدعي الذكريات،

الأفكار، الخواطر... يؤججها..." لا أعرف. ربما. لكنني الآن، لن أعيد كتابة العبارة كما هي، فأنا لا أتذكرها كما هي أصلًا... ماذا سأكتب! ... ثمة شيءٌ ينقصني في هذه الفكرة اللامعة! ...

توقف رفيق عن كتابة مقالته الجامعية قليلًا... أشعل غليونه. صبّ كأسًا من الويسكي في كأسه الهادئ المفضل الذي لا يفارق مكتبه، كأس الكريستال بوهيميّ. حرك قطعتين من الثلج داخله... اه، عرفت:

... أن تكون عاجزًا عن الإفلات...

هذه هي.

❁

في الصباح. نظر رفيق إلى الجدار الحجري حيث كانت تقف حلزونته. لم تكن هناك.

ظل واقفًا يُمعن في الجدار. كلّ شيءٍ غاب من حوله.

انجذب الخريفُ إلى الأحمر.

برليود رقم 846

قد يبدو غريبًا أن تحلم في وقتٍ تحتاج فيه إلى كلّ حواسك كي تنجو. قد يبدو غريبًا ألا يكون حلمك أداةً، ولو وهميّة، تخدم صراعك من أجل البقاء حيًّا. وقد يكون غريبًا أن تعيش حلمك، تجسّده، في واقع لا مكان فيه للحلم، لا مكان فيه للنوم.

❁

يبدأ آسر نهاره داخل الجحر المعتم، يُراقب الجراذين الحبالى، ويعيد إحصاء العدد بعد أن يكتشف نقصان جُرذانة حبلى.

كُنّ ثلاثة بالأمس... هيا لنرى... واحد، إثنان، ثلاثة... 46، 47... إذًا زاد العدد ستة... 54 جرذ، وهذا هو حملها الرابع هذه السنة... جيد، أحسنتِ يا لوزة. يمكننا اليوم طهي بضعةٍ... هيا لنرى على من سيقع الحظ!

❁

ثمة من لا يعرف ما معنى أن تعيش في الشرق الأوسط؛ أن تعيش داخل جُحرٍ معتم، حيث لا كهرباء ولا وقود ولا ماء شربٍ نظيفٍ توفره لك حنفية بيتٍ، وحيث لا يمكنك الاستسلام للنوم. إن أردت أن تستسلم، فللموت وحده. أما الحلم، إن حلمت، فعليك أن تكون متيقّظًا.

أما الجُرذانُ، فلا تنام...

❁

يصطاد آسر جرذانه بحاسّة اللمس. فضوء هاتفه يستهلك الكثير من الشّحن، وفي الشرق الأوسط لا يمكنك الشحن إلا عبر طرقٍ ملتويةٍ لا يعرفها إلا من أجبرته الحياة على هذا النوع من المعرفة. لكن ثمة سببٌ آخر يشجعه على الاصطياد باللمس دون أن ينظر إلى وجوه جرذانه، ففي النظر تعاطف.

يُشعل الحطب في حاكورة البيت الريفيّ المنعزل. يُفرّغ أحشاء غذائه. يرميها لغربانٍ قد تمر من هنا. وبينما ينتظر رائحة الشواء، يجلس على الأرض إلى جانب البنك الخشبي المُهمل، يُمسك هاتفه بيد، وينقل بيده الأخرى رسم مفاتيح البيانو كما يراها على

الشاشة الصغيرة بطباشير الفحم الأسود. يحرّك أصابعه فوق المفاتيح. يتحسس المسافات... لا... المسافة هنا أكبر مما ينبغي، يبدو أنني... آه، أخطأت... يمسح المفتاحين المتلاصقين بطرف كمّه مُعيدًا رسمهما من جديد... لأجرب الآن... سي... دو... ري... يكرر الحركة مرة ومرتين بأصابعه الصغيرة المتسخة... آه، الآن أفضل...

ما زال أمامنا صيفٌ طويل. لا خشية على البيانو من المطر. يحرك الشاشة. يُشغّل الموسيقى. يُغمض عينيه. يحرك أصابعه، فتنطلق النغمات في مخيّلته عذبةً رنانةً كسماء الشرق.

"ذات يوم سأعزف باخ على نحو أفضل من جلين غولد[1] هذا... ما ينقص باخ هو لون الغسق الذي لا يعرفه سكان الشمال".

❁

1 جلين هربرت جولد (Glenn Herbert Gould) هو عازف بيانو كندي أصبح من أشهر وأفضل عازفي البيانو الكلاسيكيين في القرن العشرين

في السنوات الأخير، طور آسر طرقًا ذكيّة لمساعدة الجرذان على الولادة. فتحبل الجُرذانة الواحدة بمعدل ثماني إلى تسع مراتٍ في العام الواحد، وفي كل حمل تلد بين خمسة وثمانية من الصغار. هكذا كان يؤمن قوت يومه وقوت أمه، وهي كل ما تبقى منعائلته، والتي لم تكتشف يومًا مصدر اللحم الذي تأكله بعد أن يقوم ابنها بشوائه وتفسيخه داخل حساء البصل اليومي، أو طبق البطاطا الممعوس والمجبول بلحم جرذانه.

يُحصي آسر جرذانه صبيحة كلّ يوم. يُجري حساباته الدقيقة؛ يجمع ويطرح ويحذف وينتظر، ولا يُقدم على شواء قبل أن يستقرّ رقمٌ بعينه في ذهنه. كان جدار القبو مليئًا بالأرقام والخطوط والحسابات المعقدة، وحين يصل في حساباته إلى رقم يُحيطه بدائرة من الفحم الأسود، فهذا يعني أنه مُقدم على حفلة شواء جديدة. لكنه، في هذا الصباح، ظلّ يعد ويُحصي جرذانه طويلًا... ثمة واحدٌ ناقصٌ... 21، 22.... لا، هذا ليس 23، إنه 24... هناك جرذٌ ناقصٌ، بل إنها جُرذانة أنثى... نعم إنها أنثى...

لم يأكل آسر هذا النهار. بقي إلى جوار بنكه الخشبيّ يمرن أصابعه على البيانو الطباشيريّ...

"يجب أن أنهي حفظ هذا البرليود اليوم... سأبدأ من هنا... خانة 22... فا دييز، دو في اليسار... لا، دو، مي بيمول في اليمين... ثم خانة 23... لا بيمول، فا في اليسار... و... آه ما أجمل هذه النقلة! ... لماذا يظن البعض أن هناك خانة ناقصة بين الخانتين 22 و 23؟

❁

تدرب آسر هذا اليوم أكثر من عادته. لم يأكل. لم يرسم دائرةً حول أي رقم. حلّ الظلام. ذهب إلى الغرفة الصغيرة لينام. أضاء هاتفه. أغمض عينيه يستمع إلى جلين غولد من جديد... نظر عبر ضوء هاتفه الخافت إلى أمه المستلقية في الزاوية المقابلة من الغرفة. كانت تدندن لحنًا غير مسموع. تحرك شفتيها وبين يدها جرذانةٌ تستمتع بملاطفتها.

أين أليعازر؟

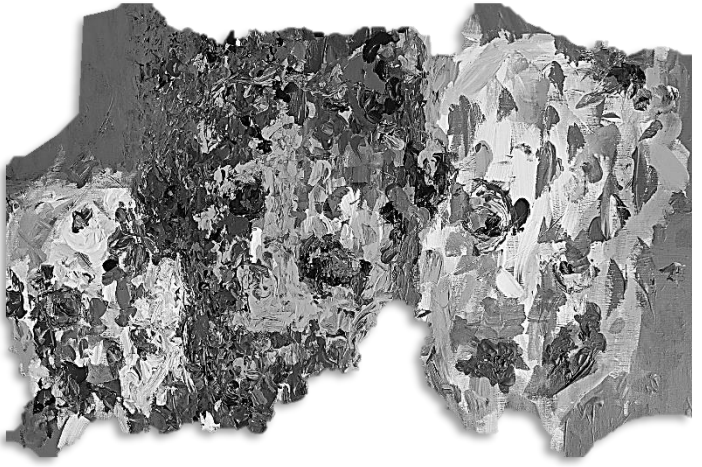

في حصّةِ الدين الأسبوعيّة تعلّم حنّا أنهم في الصّف مجموعتان: مسيحيون ومسلمون. لم يقسّموا أبناءُ الصفِّ الواحد أنفسَهُم بأنفُسِهم، كما لم يسألهم أحدٌ أيّ المجموعتيْن يختارون. كلّ ما يذكره حنّا عن تلك المرحلة هو أنه كَرِهَ حِصَّة الدين، لا، ليس لأنهُ كان كافرًا به، فهذا أيضًا لم يكن قد خطر بباله بعد، فحيث لا دين لا كُفر، لكنه كره حصّة الدين لأن زُملاءه "المُسلمين" كانوا يُحرَّرون من هذه الحصّة ويخرجون إلى ساحة المدرسة للّعب بالكرة.

هناك أسباب أخرى جعلت حنا يكره هذه الحصّة. أهمّها "الغُراب". لا غراب سفر التكوين الشّهير، فهذا أيضًا لم يكن بعد ضمن اكتشافاته، وليس "غْرابِ البِينْ" الذي كان يتردّد في شتائم جدّته دون أن يفهم معناه، بل "الغراب" الذي هو كُنية الخوري الذي كان يبصقُ نصوص الدين بصقًا في وجه هذه الحصّة، حتى أن الطّلاب كانوا يتحاشون الجلوس في المقاعد الأماميّة تجنّبًا للبُصاق.

"أبونا الغراب". هكذا كان الطلابُ يسمّونه سرًّا فيما بينهم. كان شديدًا قاسيًا دون سبب. دائم التشنُّج ودائم الصُّراخ. حتى حين

كان يحاول مُناغشة الطلاب، كان يُمسكهم بأصابع يديْه من خدودهم ويرفعهم إلى أعلى حتى تنفصل أجسادُهم عن الأرض".

- كانت لديه مُشكلة مع الجاذبيّة فيُشاكسها. (قلتُ ممازحًا، ولم يضحك حنّا)
- ... كانت "مُناغشة" موجعة. كنّا نغيّر طريقَنا حين نراه. إن أمكن الإفلات.
- ...
- كان الغُرابُ يشدّني من مقعدي في مؤخّرة الصفّ إلى مقعدٍ أماميٍّ إلى جوار سوزان، تلك التي لم أكتشف جمالها إلا بعد عشرة سنين أو أكثر، حين رأيتها سرًّا وهي تُقبّل أحد طلاب المدرسة الأكبر سنًّا خلف كنيسة المدرسة. لكن الآن، في الصفّ الرابع الابتدائيّ، كلُّ ما اكتشفته فيها في حصّة الدين، أن أبويْها كانا مؤمنان بيسوع بشدّة، وأنها كانت تدأب على قضم جلد أناملها باستمرارٍ، كما كانت تأكل المحّايات ذات الرائحة الزكيّة".

حصّةُ دينٍ واحدة، من بين هذه الحصص، ظلّت ترنُّ في ذاكرة حنّا.

سأحكي لكم اليوم قصّة أليعازر يا أولاد. من منكم يعرف أليعازر؟

بُهتَ الطلابُ بالاسم وقد بدا غريبًا على مسامعهم.

لم يُخف الغرابُ امتعاضه. وأخذ "يُناغش" سوزان التي لم تعد تجلس في المقعد الأمامي، دون أن يُخفي عصبيّته.

قصّ الغُرابُ على الأولاد قصّةَ أليعازر التي تقول إن المسيحَ "أقامَهُ" من الموت بعد أن مكث في القبر ثلاثة أيام. ولسبب غير مفهومٍ، شدّد الغراب كثيرًا على عبارة "ثلاثة أيام":

- كم يوم مكث أليعازر في القبر يا أولاد؟
- ثلاثهْ...
- كمْ؟ لم أسمعكم جيّدًا!
- ثلاثهْ... ثلاثهْ...

"بكونْ فَطَّسْ". (وشوش يوسف الجالس على مقعد سوزان في أذن حنا).

كان الطلاب يستمعون إلى القصّة بانتباه. والحقيقة أنها لم تكن خالية من التشويق رُغم قلّة موهبة الغراب في السّرد.

- لا أذكر ما الذي خطر ببالي حينها، لكنني رفعتُ يدي وسألتُ سؤالًا، لا أعرف من أيّ ثُقبٍ أسود في دماغي قد أفلتَ (تابع حنا): "أينَ هو أليعازر اليوم؟"
- ماذا أجابك؟
- ... ... وُجومٌ في الصفّ. اقترب الغرابُ منّي لم يُزح عينيْه عنّي. وقف إلى جانبي لا ينبسُ بكلمة، انتظرت الجواب، بحثت عنه في بريق عينيه. جاءَ الجوابُ صاعقًا رنّانًا مُدوّيًا: صَفعة مفاجئة على خدّي...

تطاير زجاج النّوافذ. انبطح الطلاب على الأرضِ. عبَقت غرفة الصفّ بالدُّخان... شيئًا فشيئا، تكثّفَ الدُّخان الأبيضُ النّاصعُ وانسلّ من الغرفة إلى السّماء الزرقاء الصّفية... فتحتُ عينيّ، كان الغُرابُ قد اختفى، ومكانه... يا إلهي! امرأةٌ جميلةٌ شبه

عارية تقف مكانه تمدّ يدها إليّ تُساعدني على الجلوس من جديدٍ في مقعدي...

نظرت إلى عينيّها. لم أسألها من تكون...

قالت: أنا المجدليّةُ

لم أقل شيئًا

قالت: تعال معي

لم أقل شيئا... طرنا معًا. ركبنا غيمةً واختفيْنا

تدحرجت الأرض بعيدًا حصوةً بعثرها حافرُ حصانٍ جامح

لم أقل شيئا

قالت: ستعود إلى الأرض... بعد ثلاثة أيام وغيمهْ

... ...

كتب صدرت للمؤلّف

- "إنتِـ Anti ـ ماءات" ا شعر ا 1998
- "رُتَيْلاء" ا شعر ا 2003
- "والبقيّة صَمْتٌ وسكون"، (حفريات في خزائن الصّمت، تراجيديا هاملت نموذجًا) ا دراسة ا مكتبة كل شيء ا 2010
- "رسائل بيلاطس البُنطيّ" ا ترجمة الى العربية ومقدمة لرواية و.ب. كروزير ا مكتبة كل شيء ا 2010
- "كونٌ لا زمن" ا شعر ا جدل للنشر ا 2019
- "موسيقى عربية صامتة، حوارات مع مؤلفين موسيقيين عرب" ا دار جاما للنشر ا 2022
- ثقافة النِّسيان، دراسات في فلسفة الموسيقى العربية" ا دار جاما للنشر ا 2023
- "صائدُ الملح"، مجموعة قصصيّة ا دار جاما للنشر ا 2023
- "صائدُ الملح"، مجموعة قصصيّة، مع ترجمة بالعبرية ا دار جاما للنشر ا 2023